الطريق إلى بلحارث

رواية

جمال ناجي

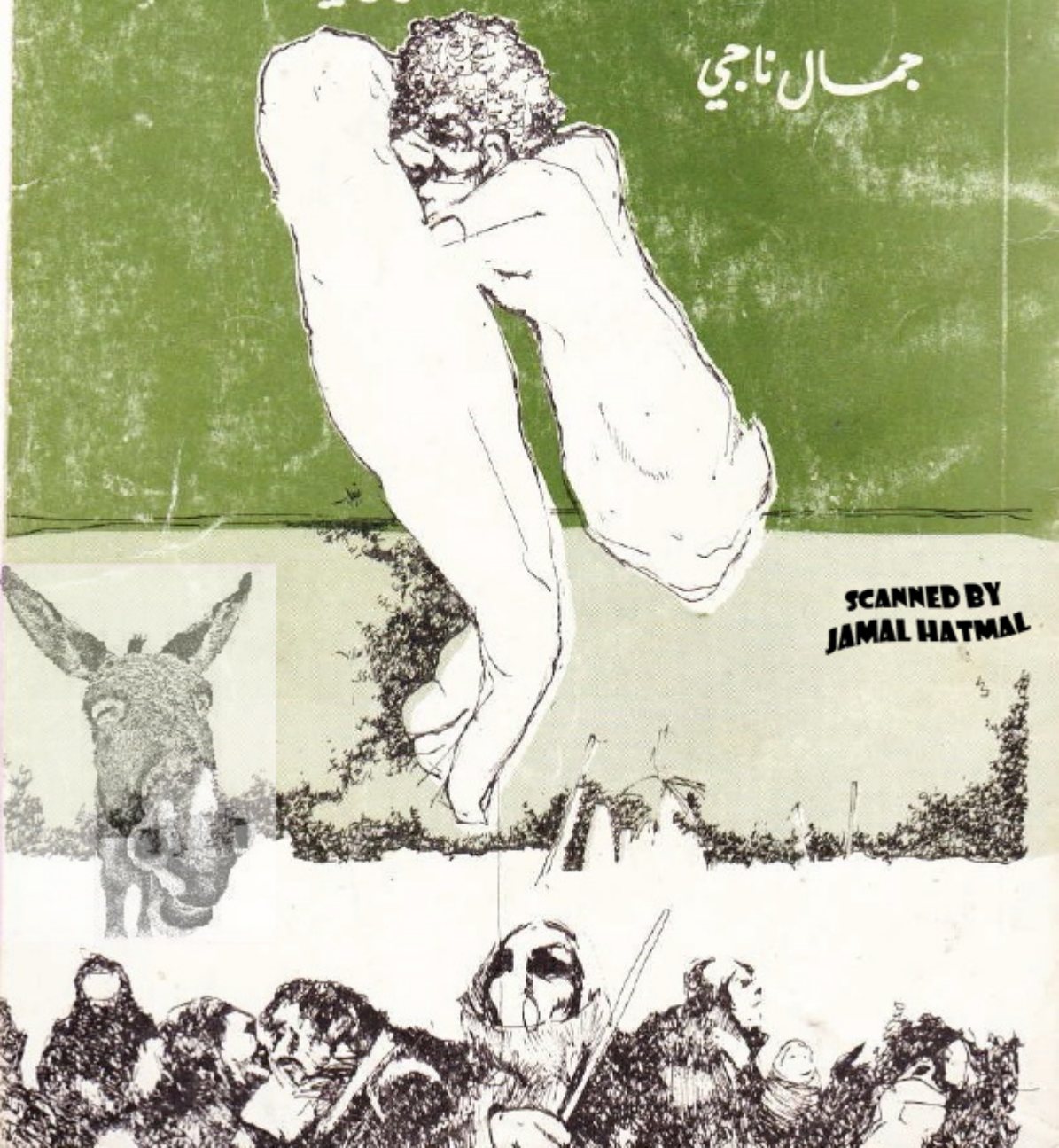

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

الطريق الى بالحارث

رواية

جمال ناجي

١٩٨٢

الى ولـــــدي مهند

وأصدقائه الصغـــار

كي لا يبتعدوا كثـــــيرا

جمـــال

العرق يسح من جباه المدرسين الاربعة ، رغم الواح الثلج التي يحملونها على اكتافهم العريضة . المسلك الجبلي ، ينحدر بحدة من مدينة « بلجرشي » الى الطريق المؤدية لقرية«بالحارث» .. يقرر أحدهم انزال لوح الثلج عن كتفه للحظات ، لكنه يلـغي الفكرة ، عندما يتذكر بأن الجثة ستتعفن اذا هم تأخروا في وضـع الواح الثلج عليها .

الاربعة يسيرون في مسلك وعر ، يتعثرون بالحجارة الجبلية المدببة ، ونباتات الشوك ، يتمسكون بالصخور كلما انزلق الحصى الصغير تحت نعالهم .الاربعة لا يتحدثون ، الوانهم تزداد شحوبـا كلما اقتربوا من « بالحارث » ، والواح الثلج تقطر علىقمصانهم المغبرة ، فترسم عليها أشكالا كامدة ، سرعان ما تزول بفعل الحر الشديد . وفي « بالحارث » ، تنتظرهم ، جثة المدرس المغـترب ، بفارغ الصبر .

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

السفر .. شيء رائع . فكرة مذهلة . وهذه المدينة بداية شاسعة لامال أرقتني سنين طويلة . « جدة » غربة قارسة تمتصني بعنف ، واستحيب لها . جدة ، قالوا ، هي الجدة الثرية التي لا تنفك توزع ثروتها لمن يسبق من الابناء والاحفاد ، وانا الحفيد الصميم ، لا شك في هذا . اجتاز الجبال والصحاري . يلتهمني زحام جدة . سياراتها الفارهة الجميلة . عماراتها الرمادية المطفأة . غبارها . والشاطيء الرنكي عند واجهتها البحرية . أجوب الشوارع والاسواق . فارن اخر ما ابتكره عصر السرعة من أدوات واجهزة كهربائية عجيبة ، تتكدس في المعارض النظيفة المكيفة . وانا . سندباد الظهيرة . ابحث عن « مقهى الجوزين » . الناس يتبادلون التحية وهم مسرعون يصلون . يشترون . يتلاعبون بالاسعار كيفما اتفق . يبيعون . ومدينة جدة ، دائمة الظمأ للحظة استرخاء وسكون .

السفر . هو القرار الوحيد الذي وجدت القدرة على تنفيذه . كان السفر ماساتي، افكر فيه كيفما شئت . اتخيله رحلة الى امصار بعيدة . وجزر في بحار منسية . سكانني جنون السفر . صنعت للفكرة اجنحة ، وسفنا ورقية ، كتلك التي كنا نصنعها في الشتاء ، لتطفو على سيل المخيم ، الذي يذهب بها بعيدا . نرقبها ، كنا ، ونلحقها زرافات ، نصفق للتي تسبق ، لكن السيل ، كان يذهب بها بعيدا ، كان الشتاء ينتهي ، والسفن الصغيرة تذوب في مياهه العكرة القذرة . والدي ، كان يحدثني اذ كنت صغيرا ، عن القصور الجميلة ، والاثاث الوردي الذي يضيء بدون مصابيح .

كنت استمع اليه بشغف . أضع يدي على خدي ، ثم أطلق العنان لابتكارات خيالي ، فتصرخ في داخلي مكامن العجز والصغر.أتألم، كنت ، أتلوى من فرط قهري ، فتختبيء في داخلي أمنيات السفر ، خلف حدود الفراغ واللاشيء ، لتنبت ثانية ، كلما رأيت جموع المغتربين في الصيف . ورغم انني غالبا ، لا أجد القدرة على تنفيذ تلك القرارات التي أتخذها ، وما أكثرها ، الا اني هذه المرة استشرست أمام قرار السفر ، حسمت ترددي فرأيتني غريبا عن نفسي عندما قررت باصرار : سأسافر . لست مقلدا لاحد . هذه المسألة تمت تسويتها بيني وبين نفسي . ولكنني احيانا احس بضرورة البحث عن حل . انها مسألة انسانية بحتة .ومساحة القرار اتسعت في ذهني : السفر . صارت حروف الكلمة تطول في رأسي ، تتمدد ، تلتف حول عنقي . حين تخرجت من معهد المعلمين ، فوجئت بأن صرت « استاذ قد الدنيا » مثلما قالت والدتي أو « المعلم الكبير » . على رأى نادية ، تلك التي تحبني ، ولا تحبني . ومن جديد عصفت بي شهوة السفر ، كانت خانقه ، فلم أجد أمامي سوى تفريخ ذلك القرار العريق على مقعد ، في طائرة ، أكبر مما تخيلت عندما كنت صغيرا .

وجدة الان تختبيء من وهج الظهيرة ولهيبها ، في الغرف المبردة ، وحمامات الماء ، جدة كومة من الجزع والخمول ومحطات البنزين والضوضاء . هياكل من التحول السريع ، والدهشة . فيها الشوارع والساحات الجميلة والمطاعم ، والحر القاتل . هنا لا وقت للأحاديث الطويلة والسهرات ، لا وقت للتفكير أو حتى للتذكر ، الكل هنا مسرع ، يسابق الزمن .

... قلت لنادية . اذ كنا نتمشى خلسة وراء اشجار المعهـــد الملتفة .

ـ لو سافرت فهل تذكرينني ؟ فوضعت يدهـــا على فمي ، كانت الاشجار تنوء تحت وطأة رياح الخريف الجافة ، وتراقصت شفتا نادية ، لم تكن ابتسامة ، فانا أعرف نادية جيدا ، وصوتهـا العذب ، لونها الوردي ، لكنها في ذلك الخريف قالت لي :

ـ لو سافرت أنا يا عماد فهل ... ؟ وانتفضت أنا كالملدوغ، قاطعتها .

ـ مستحيل ! فابتسمت هي ـ لماذا ؟ قلت :

ـ لان السفر لا يليق بك .

ـ ولا يليق بك أيضا ..

قالت وقد ازدان صوتها برنة جذلى ..

ـ سألتها لماذا ؟

ـ لانك تحبني يا عماد . واشتعلت النيران في صـــدري ، فوجدتني رقيقا ناعما ، رغم انني أعرف تماما ، من أنا ، واعرف أيضا ، تلك الفوضى ، وعدم الانسجام اللذان يتحكمان بتصرفاتي . تفحصت الجهات الاربعة ، يومها . لم أر احدا ، أمسكت بيـــد نادية ، شددت عليها ، كان ذلك الخريف حارا وحبيبا . أحـــب نادية ، واعلن الان رحيلي ، واختبائي من عيونها التي تلاحقـني اني ذهبت . ونادية الان حلم بعيد ، يقبع وراء مساحات شاسعـــة من الرمال والوهاد والفراغ ، لم تأت معي ، لكنها قالت لي عنـد الـــوداع .

ـ ساكون معك .. وصدقتها ، لم أجد فرصة التفكـــير فيما قالت ، وسلمت بكل كلمة نطقتها تلك العيون السوداء . حينمـا علمت والدتي بانني أحب نادية ، قالت :

ـ « عرفني عليها » . والدتي تتدخل في كل شيء ، ربمـــا كان السبب هو توليها اعالتنا بعد وفاة والدي ، وربما ورثت هذه الصفة عنه ، فقد كان ـ رحمه الله ـ صلبا صارما ، اذا قال لنـــا افعلوا ، نكون فاعلين ، اسكتوا ، نكون ساكتين . ولما تمنعـــت أنا عن الاجابة على سؤال والدتي ، سألتني عن أوصاف نادية . وطلب والدتي قاطع كحد السيف . صحيح انني اختلف معهـــا في معظم الامـــور ، وصحيـــح ان مطالعاتي المستمرة ، واحتكاكي بالشباب ، قلبا تلك المفاهيم التي غرستها في ذهني منذ الطفولة ، الا انني اكن لها حبا واحتراما عظيمين ، فهي التي عوضتنـــا ـ أنا واخي سعيد واختي الصغيرة نهاد ـ حنان الاب الذي افتقدناه عندما توفى والدي في الخامس من حزيران ، وكانت تسهر الليالي الطويلة ، وهي جالسة خلف ماكينة الخياطة ، وفي مواســـم الاعياد ، لم تكن تفارق الماكينة الا عند الفجر ، كان العيد بالنسبة لها مجرد حالة من الاعياء والشحوب ، تصيب جسدها ، في العـام مرتين . سألتني عن أوصاف نادية . قلت

ـ بشرتها زهرية فاتحة ، طويلة ، نحيلة ، شعرها أسود ، وتحبني كثيرا . فالتمعت عيون والدتي ،

قالت ـ « فلاحة والا مدنية » .

قلت ـ مدنية .

ـ سالتني أصلها من الساحل ؟

قلت ـ نعم .

فنجمـــت :

ـ يافاوية ؟؟ ! وفي الامهات قدرة عجيبة على استنبـــاط الاصول . سالتها .

ـ كيف عرفت أنها يافاوية ؟ فابتسمت والدتي بثقة ، ثـــم قالت ـ

« مش قلت لونها زهري فاتح ؟ وانها مدنية مش فلاحـــة ؟ »

أجبت ـ نعم . قالت :ـ

ـ « وانا باعرف أهل يافا من بين كل الناس ،احنا الفلاحين عندنا مثل بيقول عن أهل يافا « أصحاب المية المالحة والوجـــوه الكالحة » والزهري الفاتح لون كالح » ثم تنهدت ..

ـ « على كل حال أهل يافا ناس أوادم ، مثلنا مثلهم ، الله يجيب اللي فيه الخير » . وأحسست بأن وراء كلماتها الاخيرة معان مبهمة ، لا تريد مفاجأتي بها ، هذا ما قرأته في عينيها اللتـــين صارتا صغيرتين بفعل ارتخاء جفنيها العلويين ، أؤكد الان بـــأن عينيها كانتا أوسع بكثير ، وقامتها كانت أطول ، وأجزم ، بـــأن شعرها لم يكن ابيض قبل وفاة والدي . ووالدتي ليست بسيطـــة فعلى الرغم من أميتها ، الا أنها تزن الامور بمقياس مـــادي صرف ، هكذا علمها كرسي الماكينة ، لكنهـــا في المطار تغيرت ، واحتضنت نادية بحرارة ، فأحسست بأن فكرة السفر ، كافيـــة لحل الكثير من الالغاز .

واليوم أمر . حينما خرجت من مطار جدة ، بحثت عن ماوى يلم شتاتي ، فاهتديت الى فندق رطب رخيص . دخلت بوابته ، فالفيت نفسي في باحة صغيرة ، جدرانها مدماة بورق أحمر اللون صاخب ، وفي سقفها مروحة بنية اللون ، يروي رفيفها المترنح قصصا عن تعاقب الاجيال . أمامي رأيت طاولة صغيرة يجلس خلفها شاب أسمر اللون ، يلبس ثوبا أبيض، وكوفيه بيضاء نظيفة دون عقال . سالته عن اجرة المبيت في الفندق ، فانفجرت بوجهي قنبلة كتلك ، التي كنا نشاهدها أيام الحرب ، قال موظف الفندق أو صاحبه ، لا أدري ، ـ الليلة الواحدة بخمسين ريالا . ودارت عيونه حول رأسي وشعري الجاف المقصف ، ثم استعرضت قميصي الازرق ، الذي تغير لونه بعد أن جف عليه العرق ، فبدا كبحر تجمدت على مياهه الامواج البيضاء . أما بنطالي الاسود ، فلم ينتبه له ، لانه لم يكلف نفسه عناءالوقوف وراء طاولته ، ليرى تلك البقع والشخطات الترابية التي خلفتها استراحاتي على الارصفة .

قال ـ ها ، ماذا قلت ؟ لم أحاول مساومته ، لانني كنت متعبا ، ثم انني غريب ، وعلي ابداء المزيد من الود تجاه أصحاب البلاد . لما وافقت على السعر الذي حدده ، طلب مني جواز السفر ، وسجل في دفتره المعلومات التي تلزمه ، ثم قال مشيرا الى الخادم اليماني النحيل .

ـ غرفة ٢٤ . هرول الخادم نازلا الدرج ، ثم حمل حقيبتي على كتفه البارز ، وقادني عبر نفس الدرج . على الرقعة المربعة توقفت . أمسكت بالافريز المحاذي للدرج ، بينما سبقني الخادم اليماني ، استرحت لبضع ثوان ، ثم تابعت الصعود .

.. في قاعة مطار عمان اقتادتني نادية بعيدا عن المودعين ، قالت :

ـ ستلتقي بأخي منصور هناك ، لقد سافر قبل اسبـــوع . سالتها مداعبا ، بينما تحركت قطرات نزقة من الدمع لتحتـــل لها مكانا في جيوب عيني ، وربما عينيها أيضا . سالتها :

ـ هل يعرف منصور عن علاقتنا ؟ فعضت شفتيها محذرة .

ـ اياك يا عماد .

قلت ـ منصور صديقي منذ أيام المعهد .

ـ وان يكن ، لا تخبره بشيء . قالت ، فاحمر وجههـــا خجـــلا .

ـ قد يساعدنا يا نادية .

ـ ولكنه أخي .وردت الى الخلف شعرها الذي تجمـــع عند خدها .

قلت ـ منصور شيء اخر ، مختلف تماما .

ـ أحبك يا عماد.همست ، فطفرت من عينيها تلك القطرات التي حاولت عبثا تأجيلها . وودت لو احتضن نادية ، أضمهـــا الى صدري ، بكل ما لدي من قوة وقسوة ، لكن صوت والدتي ، أتاني مثقلا بالرقة والحنان ، ليختزل لحظات قسرية موجعـــة ، يعيشها كل مسافر .

ـ « الغربة للرجال يا أولادي ، ليش الحزن » فاشـــاح أخي الجامح « سعيد » وجهه حزنا . تلك كانت أول مرة يحـزن فيها سعيد ، بعد أن منعته والدتي من التجوال طوال العطـــلة الصيفية في شوارع المخيم ، ومعاكسة الفتيات .

في الطابق الثالث من الفندق ، توقف الخادم اليماني عند باب رمادي اللون ، ثم انزل الحقيبة برفق عن كتفه ، وعرفت دون ان انظر الى الرقم المثبت في أعلى الباب ، بأنها الغرفة ٢٤ . فتحت الباب ، فوجدت سريرا مرتبا ، يفتح ذراعيه بغبطة لاحتضان شتاتي ، في الركن الاخر من الغرفة ، كانت تقبع خزانة حديدية صغيرة ، تحمل على سطحها نظارات عتيقة ، لرجل مترهل ، يتقعر فوق سرير صدىء . حييته فلم يرد ، كان يغط في النوم ، ناسيا وجهه في وضع مقابل للمروحة الكهربائية في الزاوية . اقفلت الباب ، ثم غيرت اتجاه المروحة لتوزع الهواء الحار في كل الاتجاهات ، فصحا الرجل المترهل ، وهو يطلق عبارات التذمر .

في المعهد ، كنت ادخر امنياتي لايام السفر ، ولم أبح بها لاحد ، رغم ان الكتمان ـ كما قالت نادية ـ ليس من صفاتي ، وكنت أحس ، بأن امنياتي بالزواج من نادية ، واسعادها ، لن تتحقق الا بالسفر الى الصحراء ، حيث الرمالات تتكدس كأكوام الكتب التي كنت أقراها . صففت تلك الامنيات في الليالي الطويلة ، خبأتها كالسلاح الممنوع والمهربات ، فاحتواها جسدي الضئيل ، ولما ودعت نادية ، أحسست بان شيئا ما قد تغير ، قطعة ما سقطت من صدري ، وبقيت دائم الاحساس ، بفقدان شيء مهم .

ظهيرة جدة يفتتحها الصباح ، وينهيها الليل ، و « مقهى الجوزين » غدت حلما ، بعد كل هذا البحث واللا جدوى ، «مقهى الجوزين» ـ قالوا لي ـ هي مقر سماسرة الطرق ، وسائقي الرمال الى بلدة القنفذة ، من يريد السفر الى أي مكان على ساحل البحر

الاحمر ، يجب أن ينطلق من مقهى الجوزين ، حيث تجتمع عند بوابتها كل سيارات الجيب المتجهة الىالقرى الساحلية ، قالوا ، بأن الكل يعرفها ، ولا أحد يعرفها ، بحثت ، شربت الكثير من علب العصير ، والبيبسي كولا المثلجة ، ومقهى الجوزينكالسمكة ، كلما حانت لحظة اصطيادها ، ضاعت منجديد ، قادني الياس الى شارع شعبي مزدحم ، فتعثرت بشاب يماني يلبس الوزره ،سألته عن المقهى ، فأشار الى بوابة خشبية واسعة ، تصطف أمامها مجموعة كبيرة من السيارات ، ثم اختفى ، فاتجهت اليها راسا ، لـ وصلت ، دخلت البوابة ببطء وحذر ، المقهى تغص بالرواد ، لم ينظر الي أحد ، كلهم كانوا منهمكين في احاديثهم الخاصة ،جلست على مقعد خشبي طويل ، بانتظار نادل المقهى ، مقهىالجوزين ، مساحة واسعة من الارض ، مسقوفة بالخشب العريض القاتم ،رجال يدخنون النرجيلة ، فحم يتوهج تحت أباريق معدنية مطلية ، مقاعد خشبية طويلة مجدولة بالقش ، بقرتان في احدى الزوايا ، أوساخ وروث حيواني وقاذورات في أحد الاركان ، رجال ياكلون اللحم والارز باليد اليمني فقط ، آخرون يتباحثون وقد بدت على وجوههم معالم الجد . مقهى الجوزين أكبر مما تخيلتها ، هي المطعم ، والكراج ، والمتجر ، ومقر اللقاءات خارج بيوت الطين في الاحياء الشعبية ، متعب أنا وجائع ، الى يساري رجل عجوز وضع كوفيته على انفه هربا من الغبار والروائح الكريهة ، بجانبه شيخ وديع يداعب قرص المذياع ، ثم يتوقف عند احدى الاذاعات . قربالشيخ رأسهمن المذياع ،تثاءبت أنا ، بدأ المذيع بتفصيلأنبائه بصوت رتيب ـ أعلن مصدر مطلع في القاهرة صباح اليوم ، بانه قد تقرر توقيع اتفاقية سيناء بالاحرف الاولى في الثالث والعشرين من الشهر الجاري ... بصق الشيخ على الارض ، ثم

هز رأسه ، وعند بوابة المقهى : رجال بثياب بيضاء طويـــلة ، يدخلون ، اخرون يخرجون ، وفي احدى الزوايا ينطلق خواربقرة. يتابع المذيع ـ ومن الجدير بالذكر أن الازمة اللبنانية قد اتخـذت ابعادا جديدة بعد ذلك الانفجار الذي هز أنحاء بيروت .العاصمة. النادل ينتقل من مكان الى اخر ، وجوه كسولة ، شيخ ينكب على مذياع ، وفتية صغار ، ينتظرون انطلاق سيارة عند مدخل المقهى . منهك أنا ، والنادل لا يستجيب لنداءاتي ، لعلني بعد لم أتعـــلم صيغة النداء المتعارف عليه ، هنا كل شيء مختلف ، سمعتهـــم ينـــادون .

ـ يا ولد يا قهوجي . اتجهت اليه رأسا ، فسمعت صوتـــــا مالوفا ، ادرت وجهي ناحية الصوت ، فقفزت صورة ناديـــــة الى مخيلتي على الفور ، انه منصور ، شقيقها منصور ، لـــــم أصدق ، لكنني اقتربت منه كهارب من لحظة فزع ،كانوجهه أكثر حرارة من لهيب الصحراء ، ضممته الى صدري بقوة ،تشبثتبه ، كما لو أن نادية بين يدي ، تعانقنا بحرارة أحسست بواحة مـــن الطمأنينـة والأمـــل ! كـــل شيء في منصـــور ، أيقظ في اعصـــارا ، عينـــاه الغائرتان ، بشرته ، شعره الاســود المسترســل ، نبرات صوته ، قامته النحيلة المستقيمة ، رأيـــت فيه نادية ، فاصابتني السعادة ، جلسنا معا على كرسي طويـــل ، سألني بلهفة عن عمان والناس والشوارع ، رغم انه لم يغب عنهـا سوى اسبوع ، اجبته بفرح ، ثم غابت عيناي عنه ، لكنهـــا استحضرت نادية ، تحول منصور الى هيكل تخفي أثوابه كل أحلام الطفولة والعنفوان ، منصور بحواجبه الكثة ، وشروده ، ليـــس سوى صفحة لا تحتوي غير كلمة واحدة : نادية . كل دقيقـــة أهم باحتضانه ، رغم أنه رجل ، صلب الملامح ، والشعر الـــذي يكسو ذراعيه العاريتين ، وصدره ، ينفي وجود أية صفة تجمعـــه بالانثى ، سوى ذلك الشبه الغريب بينهما : هو واخته نادية .

- ٢ -

عندماسأ لته عن المدة التي يستغرقها السفر من جـــدة الى القنفذة ، قال منصور بحرج

ـ خمس عشرة ساعة . ثم أردف محـاولا تدارك وقـع هـذه الصدمة التي لم اتوقعها .

ـ مقطوعة مفصولة ، ولكن أحمد ربك ، لانك وجدت رفيقا يسليك في هذا السفر . ومن بين عشرات الســـيارات الصغـيرة والضخمة ، وبسطات بيع الخرز والاساور المعدنية الرخيصـــة ، اختط الجيب التويوتا طريقه ، كالابرة في الكتان ، ثم سرعان مـا استقامت له طريق عريضة معبـــدة ، أغرت السائق ، فطـــارت الســـيارة .

في الصندوق الخلفي للجيب ، التصقت بمنصور ، فالمكـان ضيق ، والركاب السبعة الاخرون ، وضعوا البطانيات خلفظهورهم كي تقيهم حدة الارتطام بقضبان الصندوق ، ثم خلعوا نعالهـم البلاستيكية ، ومدوا أقدامهم باستقامة والم ، فازداد المكـــان ضيقا . كانوا يتحدثون في أمور كثيرة ، عن المواشي والتجـــارة والمرض ، ثم يبصقون من خـلال القضبان . قال منصور .

ـ عما قريب سننتهي من الطريق المعبد ، ونبدأ في طريـــق كله رمال في رمال ، هل معك كوفيـــة ؟ سألني مستدركـــا ، فقلت ببلاهة

ـ كوفيـــة لمـــاذا ؟

ـ لكي تحميك من الغبار ، أنا اعرف هذه الصحراء جيدا ، لقد أصابني الربو في العام الماضي عندما كنت جديدا مثلك ، لانني نسيت أن أحضر معي كوفية ، ولكن لا بأس ، سأقطع كوفيتي الى نصفين . ثم تناول كوفيته من الحقيبة الجلدية ، وثناها مطابقا طرفيها على بعضهما ، ثم قرض بأسنانه مكانا صغيرا في اعلاها ، وبسرعة شد طرفيها ، فانقطعت الى نصفين . قال أحد الركاب .

ـ « ايش بك يا استاذ ؟ » فأجاب منصور دون أن ينظر الى صاحب الصوت

ـ «قسمتها بيني وبين خويي » ـ « ليش خويك ما معه كوفيه » ؟ سال نفس الرجل .

ـ « نسي يشتري ، على كل حال مافيش مشكلة » .

فهمت من جواب منصور ، انه لا يريد فتح أي حوار مع الركاب الاخرين ، أما أنا ، فمن المؤكد انني لن اجازف بالتحدث مع أي منهم ، لانني بعد ، لا افهم الكثير من الكلمات التي يستخدمونها .

خلال قضبان الصندوق ، انفجر منظر البحر الاحمر ، شجيا ودامعا ، رأيته يقترب ، لم يكن غريبا ، البحر ،رغم انني أراه لاول مرة ، في مياهه المتلألئة ، شممت عبق التاريخ ،وحكمة الاجداد ، كان البحر ، ومنصور مستغرق بكل جوارحهفي تأمله ،

أما الامواج ، فلآليء تتراقص تحت الشمس الحارقة ، تتجهنحونا، تقترب ، ثم تذوب فوقالرمال . لم اقل شيئا ، ولم يقلمنصور ، أصوات الركاب العالية ، وهدير الجيب ، وارتجاجاته المتلاحقة ، غدت رتيبة مملة ، أمام عظمة البحر . قلت لمنصور ، بعد أن غاب البحر وراء كثيب ضخم من الرمال الصفراء .

ـ لماذا لم نركب بجانب السائق ؟ فاجاب بكسل

ـ الجلوس بجانب السائق«القطة»لا يحسناصطيادهاالا راكب متمرس ، قديم ، ثم ان الاستاذ علي وزوجته المعلمة هما اللذان يجلسان عند السائق .

معنا معلمة انثى . ومنصور أضاف . ان المعلمة حامل في شهرها التاسع ! وكمن يتابع قراءة نص تقليدي ، قال منصور ـ قد تلد في اية لحظة . وانا . قد ينفجر راسي في اية لحظة ، وقد ، تلد هذه المعلمة، طفلا متوهجا ، يضمخ بالرمال ، وبالغربة . عاودت السؤال .

ـ ولماذا تسافر ؟ فاجاب بنفاذ صبر .

ـ لانها معلمة ، ولان زوجها ، الاستاذ علي ، لا يريد أن يضيع العام الدراسي عليها ،لانهم سيشطبون اسمها ان تاخرت عن القدوم الى هنا في الوقت المحدد . تنهد منصور .

ـ الا ترى بأن العلم أصبح مصيبة للبنات ؟ ثم استطرد .

ـ هل تعلم بانني صرت أتوجس من مستقبل اختي نادية ؟ اذ من الممكن ان يتزوجها وغد كعلي ، ويأخذها معه لتعمـــل في هذه الصحراء .

وقلبي انتفض فجاة ، ثم تلاحقت دقاته ، عنيفة مضطربة ، وتركت منصور يتحدث كيفما يحلو له ، لكن ، ماذا لو عرفبانني ذلك الوغد الذي انتظرها عامين كاملين ، والذي سيتزوجهـــا ؟ لماذا لا اخبره بذلك ؟ لماذا لا اصطاد لحظة صفائه ، وافاتحـــه بحبي لها ، ورغبتي في الزواج منها رسميا ؟ هل في الامر ما هـو غير عادي ؟ قد يساعدنا منصور ، انه طيب ، لا بد انه مر بتجربة عاطفية في حياته ، عيناه الغائرتان تفصحان عن ذلك ، نظراتـه الملوحة ، وتنهداته العميقة الضارية ، قد نسكن معا ، أنا وهو ، عندها سأجد الفرصة المناسبة .. ارتجت السيارة ، فارتطم ظهري بقضبان الصندوق ، لكنني لم اقل شيئا ، يجب أن أصبر ، واثبت على الاقل لنفسي ، بانني صرت رجلا ، تلاحقت الارتجاجـات ، ناولني منصور نصف كوفيته ، قال

ـ بدأنا في الطريق الرملي ، لف الكوفية جيدا على انفـك وفمك ، وصار يلف ما تبقىله من الكوفية حول رأسه ، ففعلـــت مثله ، لكنني أحسست بدوران في راسي ، وكبس على عيني نعاس غريب ، لم استطع مقاومته رغم المطبات المتلاحقـــة التي ترفس الجيب دون هوادة . الصحيح انني في البداية لم أنم تمامـــا ، وكنت ، كلما غفوت ، أصحو وأنا أجفل ، لكن هيهات فالنـــوم سلطان ، وأنا بجسدي الضئيل المنهك ، وقامتي القصيرة ، لـــن استطيع مقاومته .

عندما صحوت ، قال لي منصور ـ وقد بدا صوته مكتوما بفعل تلك الكوفية الملفوفة حول أنفه وفمه .

ـ بقي من الطريق اثنتا عشرة ساعة اذا لم يخطيء السائق دليله في الليل . وكان المساء يزحف حول الصحراء ، ممعنا في حصار رهيب ، حول البقعة الرطبة من الرمال ، التي توقفنا عندها ، لنستريح ونأكل .

الطريق . بحر شاسع من الرمال ، سراب يتفجر ، يتنقل من مكان لاخر فوق الكثبان المصقولة ، يبتعد عنا كلما اقتربنا منه ، والبحر ، يسير بمحاذاة الجيب ، يختفي ، ثم يعاود الظهور ، وعمان ، المرأة الرودية البشرة ، غدت حلما ذاريا ، تضمخ بالرمال ، ذكريات توغل في النسيان والاندحار . ما الذي عناه منصور حينما قال :

« اذا لم يفقد السائق دليله في الليل » .
ـ أي دليل ؟ سألته ، فأجاب :

ـ كما ترى فنحن نسير في رمال لا أول لها ولا اخر ، نتجه الى اليسار تارة ، واخرى الى اليمين ، السائق يستدل على الاتجاهات في النهار عن طريق البحر ، أما الان ، فقد اختفى البحر ، أنظر .

نظرت خلال القضبان ، فرأيت الظلام يلتف حول كل شيء ، يحاصر أنوار الجيب الكاشفة ، يطبق عليها ، لكأنه يريد اطفاءها ، شاهدت بضع حيوانات برية صغيرة ، تتقافز أمام الجيب ، معلنة عن وجودها . أكمل منصور ـ لكن لا تقلق ، فهناك دليل يعرفه السائق ، ويهتدي على الطريق من خلاله ، انه النجم يا عماد ، ففي سماء الجزيرة نجمان متألقان في أقصى الجنوب ، يتجه السائق نحوهما اذا اراد السير جنوبا ،ويستدل بهما كلما أضاع طريقه .

ووجدت لنفسي العذر ، على تلك الحسرة المرافقة لعبارتي التي قلتها بصوت خنوع .

ـ نجمان يا منصور . لم استطع رفع صوتي ، رغمان الحديث في الجيب ، يتطلب صوتا عاليا يطغي على هدير المحـــــرك ، وأصبت بما يشبه الانكسار والخيبة .

ـ وهل تحسب السفر الى القنفذة مزحة سهلة ؟ انه مجازفـة يا عماد ، فالطريق بلا حدود أو شاخصات طرق ، واحيانا تختفي معالمها نهائيا ، بفعل العواصف الرملية التي تهب من الصحراء تتحول الطريق الى مجرد وهاد رملية ، وتلال متحركة ،ويضطر السائق لشق طريق جديدة بعجلات سيارته ، وقد يتجه شمـــــالا بدل الجنوب ، وربما العكس ، دون ان يدري ... وتوقف منصور عن الكلام ، عندما انفلتت صرخة مترنحة من السماعة المثبتـة في أعلى الصندوق ، والموصولة بمسجل الجيب ، أعقبتها صرخـــــة اخرى ، طويلة ، جفلت أنا ، نظرت الى منصور لم أتبين ملامحه.

ـ ما هذا ؟ قلت بصوت مرتفع . فضحك الركاب ، لكنني لـم استطع تمييز وجوههم ، ضحك منصور ، ضحكت مرغما ، قـال أحد الركاب .

ـ ليش خفت يا استاذ ، ما تعرف القحم ؟ »

ثم ضج بالضحك ، فاتكأ منصور بساعده على كتفي، وتصدى له قائـــلا :

ـ الاستاذ عماد جديد ، لا يعرف القحم ولا غيره ٠

فقال نفس الرجل ـ « ٥٢ ، جديد ، قل له ما يخرع لما يسمع (عليه) بعد » ٠ فانفجر جميع الركاب في الضحك بطريقة بدائية ، لكن منصور حسم الموقف ٠

ـ « خلو القحم وعليه لكم ، الاستاذ لا يريد سماعهم » ٠ ثم همس في اذني ٠

ـ هذه عادة المسافرين يمزحون لكي يخففوا عبء الرحلة ، لا تهتم ٠

لكن الوقت لم يكن ليسمح لي بالاهتمام ، كنت أحس بانني في حالة ركض مستمر ، رغم الخدر الذي دب في مفاصل اقدامي المحاصرة باقدام الركاب ، كنت أركض ، أصر على تصديق ذلك الاحساس ، خيول جامحة ، كانت تسكنني ، لم تكن في حالة اقدام ، أو هرب ،هي الخيول تركض ، وصوت « القحم » يزداد قسوة وحدة ٠

ـ ومن هو القحم ؟ سالته فاجاب

ـ مطرب شعبي غير مسموح له بالغناء في الاذاعة ، كذلك « عليه » ٠

صوت القحم ظل ينوح من خلال السماعة ، مذبوحا ، رفيعا ، ثاقبا ، كمواء قط فاته قطار شباط ٠ قال منصور

ـ هل حضر أهلك الى المطار حينما سافرت ؟

ـ بلى . اجبت بينما تراءت لي نادية على الفور ، لمـــاذا يصر منصور على نبش ذاكرتي ؟ كأنه يعرف مـــكان الجروح في صدري ، ويفتحها ، يتركها عرضة لغبار الصحراء ، وأنين دروبها الموحشة ، انه الان يصمت ، من يصدق ؟ منصور الذي كان يصنع الاصدقاء ، يغزلهم في شلل طلابية ، ثم يفرقهم ، ويبقون أصدقـاءه الاوفياء ، يسافر الان في هذه الرمال ، يطوي ساقيه الى الوراء ، ينكمش على نفسه ، دون ان يجد أحدا يتحدث اليه ؟! تساءلت غير مرة ، عن ذلك السحر الذي كان يمتلكه منصور ، والذي يؤهـــله لامتلاك الطلبة ، وتسييرهم . كان منصور . والمعهد الان هيكـل يتناثر في غبش الذاكرة . منصور ، آه لو تعلم ، والوقت لم يحن بعد ، لكنني ساخبرك يوما ما ،بكل شيء ، ماذا لو رأيت في جيبي صورة نادية ؟ أو احدى رسائلها ؟ ماذا ستفعل؟قد تصاب بالجنون. لكننا هنا متوحدين في صحراء لا ترحم . اليس كذلك يا منصور ؟ لكن المسالة أخطر بكثير مما أتخيل ، قد يغضب،قد يبصق بوجهي، قد يبعث لنادية رسالة يقصم فيها ظهرها ، يحطم كل شيء، لكنه لن يفجر معي صراعا ، هنا على الاقل ، ونادية ؟ كيـف ستتلقى النبأ ، لو عرف منصور ؟ ما موقفها الان ، بعد أن تركتهاوسافرت؟ أما زالت كما عهدتها ؟ نادية تختلف ، نادية لا تشبهها أية فتاة ، لكنها رفضت فكرة السفر ...

توقفت السيارة ، توقف الركاب عن أحاديثهم ، ساد صمت ، فتح الباب الجانبي ، نزلت زوجة الاستاذ علي التي اندلقت عـلى الرمال الباردة ، وهي تطلق صرخات دموية ، فتبعها زوجهـا ، انه الطلق ، قد تلد هذه المرأة . قد تنجب طفلا جميلا متوحدا ، في هذا الخضم العارم من الرمال والنظرات الشاحبة ، منصـــور

نزل من الصندوق فتبعته ، وقفنا بجانب زوجها المازوم ، بينما تقبت اذاننا عبارات الشفقة التي انطلقت بين الركاب ، كان الطلق ، ومنصور قال للاستاذ علي بحدة .

ـ يا رجل حرام عليك ، لماذا لم تتركها في عمان لتلد هناك ، هل يعجبك هذا الوضع ؟

لكن عليا لم يجب ، ورغم ان الظلام لم يتح لاحد رؤية تفاصيل جسد زوجته التي كانت تتلوى على الرمال، الا ان عليا كان يتقطع حيرة وحرجا ، لا سيما وان السائق ، ابدى امتعاضة من ذا التاخير الذي لم يحسب حسابه . علي كان في وضع مؤلم ، لم يكن قادرا على عمل اي شيء لزوجته ، حتى الكلمات المهدئة ، فقد هربت منه ، وتلعثم في نطقها ، ثم اثر الصمت ، صمتنا جميعا باستثناء المعلمة ، واحست بان وجودنا بجانب علي ، يفسد عليه محاولات تخفيف الام الوضع التي تعاني منها زوجته . انسحبت ، فتبعني منصور ، تمشينا قليلا خلف الجيب ، فانفلتت من فمها صرخة هائلة ، امتدت ، حادة ، دامية ، لكن المعلمة لم تلد ، بقيت تصرخ ، تشد شعرها ، تحفن الرمال ، تضغطها بنبضتها ، ثم تبتلع بعضها ، فتسعل ، تقيء ، تدمع ، تنقلب على بطنها ، ظهرها ، ونتالم نحن ، ننظر الى علي بحقد وازدراء ، ثم نشفق عليه .

لما هدات المعلمة قليلا ، كان صبر السائق قد نفذ ، فاسندها علي واضعا كلتا يديه تحت ابطيها ، ولما وقفت على قدميها ، امسكت بباب السيارة المفتوح ، فانسل علي بجانب السائق ، بينما امسكتها انا ومنصور من ذراعيها ، متجاوزين عدة اعتبارات ،

واجلسناها بصعوبة ورفق ، الى جانب زوجها الذي شكرنـــــا بحرارة ، بينما تبرم السائق ـ « الله يعيننا على هالسبخة * »

ركبنا الصندوق بحماس ، ادار السائق محرك السيـــارة ، الا انها لم تتحرك ، بقيت عجلاتها تدور في مكانها دون ان تتقـــدم شبرا واحدا ، صاح أحد الركاب .

ـ « يا شوفير خلينا ننزل ندفها » . ثم بادر بالقفز مـــــن الصندوق ، فتبعه بقية الركاب ، ومنصور ، وأنا ، حتى الاستاذ علي ، فقد نزل بناء على طلب السائق الذي رأى في جثتهالضخمة، خير نافع في تلك الازمة ، الا انني أحسست بأن السائق اراد الانتقام من علي وزوجته اللذين تسببا في المشكلة .

أمسك كل واحد منا بمكان من الجيب ، وبعزم ، اقتلعنـــاه من مكانه،فانطلق، ثم بدأنا نسير خلفه فرحين، لكنه لم يتوقف . . قلت ، وانا اترنح من شدة التعب والاعياء .

ـ كم طول السبخة ؟
ـ حوالي كيلو متر .
ـ ولماذا لا يتوقف ؟

ـ لأنه يخاف ان تغور العجلات في السبخة مرة اخـــرى اذا

---

* السبخة : منطقة تحاذي الشاطيء ، وتبتل بمياه البحـــــر ليلا ، بفعل ظواهر المد والجزر .

توقف . كانت أضواء الجيب الحمراء ، هي دليلنا الوحيـــد ، وفرصتنا للنجاة من وحشة الصحراء ، لم يكن البحر واضحـــا ، فالظلام ممتد الى كل الارجاء ، والسماء الهادئة الثقيلة ، تجثـــم بصمت فوق كل اسباب الصوت ، وحتى البحر ، فقد انكتمصوته تماما ، كان السماء سخطت مياهه الى هاوية القرار . صار علي يركض وحيـدا ، متفردا في تصرفه ، ابتعد عنـــا ، اختفى ليلحق بزوجته . ليركض علي ، وليطير ، لا بد انه تخيل هذه المسالة : زوجته + السائق الذي يتبخر حرارة + الليل + مسافة كيلو متر تفصله عن زوجته الحامل ! الم تخطر بباله هذه المسالة قبل انيقرر السفر ؟ وهو مدرس الرياضيات كما قال منصور ، هو الذي يحـل الغاز المعادلات ، لكن هذا ليس أسوأ الاحتمالات ، فهناك احتمال الموت جوعا ، عطشا ، او حتى ضياعا ، كل شيء جائز . لمـــا وصلنا كان علي يجلس بين زوجته وبين السائق مطمئنا ، وقبل ان نتسلق مؤخرة الجيب ، نظر أحد الركاب الى السماء ثـــم دار حول نفسه مبقيا رأسه في مواجهة السماء ، وقال مشككا :

ـ « أنا أقول الشوفير ضيع الطريق » .
قال آخر بينما جال ببصره في الافق البعيد الملتحمبالرمال .

ـ (لا يا رجال ، بس النجم اختفى) .

الا ان هذا الاخير ، حك لحيته ونظر مرة اخرى . لم يكن هناك اي احتمال لمعرفة الاتجاهات ، الا انني صـــرت اتفحص الارجـــاء ، علني أعثر على البحـر الذي سيدلنا عـلى الطريق . لم أتبين شيئا ، كانت الاتجاهات لفيفا دامسا من الكحل ، تقطعه

دائرة من الافق الموشى بنجوم حادة البريق . قال راكب اخر تفوح من صوته رائحة النعاس .

ـ « أنا أقول خلينا ننتظر طلوع الفجر ، هذا الوحل من الرطوبة مش من ماء البحر ، والصباح رباح » ثم تثاءب .

منصور كان يقف عند مؤخرة الجيب مكتوف اليدين ، أما علي وزوجته ، فلم ينزلا من الجيب .

السائق مل الانتظار ، نزل وهو يقول .

ـ « ياجماعة ، بكفينا تاخير ، أنا أعرف الطريق أكثرمنكم، بس اطلعوا ، احنا نسير في الطريق الصحيح » .

سأله منصور .

ـ كيف عرفت ما دام النجم اختفى ؟

فاشار السائق الى أحد الاتجاهات باصبعه .

ـ « ذاك هو البحر » فسأله أحد الركاب.

ـ « أيش عرفك يا الأخو ؟ » وبدا صوته بدويا غابرا .

قال السائق

ـ « جرب استعمل خشمك يا الاخو ، البحر له رائحة غير الرمل ، ورائحة الماء من هذه الجهة أقوى من بقية الجهات » ثم حسم الموقف اخيرا .

ـ « يلا اطلعوا خلينا نمشي ».

وركب خلف المقود ، ثم ادار المحرك ، فتسلقنا مؤخرةالجيب الذي انطلق قبل ان نتمكن من اتخاذ اماكننا فيه . نظرت الى ساعتي . قلت بيأس .

ـ اذا لم يخطيء السائق الطريق ، فقـــد بقي للقنفـذة ساعتان .

ـ هل أنت مشتاق لرؤية القنفذة . قال منصور بينمـــا ارتجت السيارة بعنف .

ـ أنا مشتاق للخلاص من شقاء الطريق .

ـ لا تبتئس ، لم يبق من الطريق سوى القليل ، بعد ساعات سيكون في جيبك خمسة الاف ريال

ـ تقصد مقدم السكن ؟ .

فضحك ـ تماما .

... خمسة الاف ريال . ستكون في جيبي بعد ساعات ! هل أنا في حلم ؟ ولم يبق حتى الان في جيبي سوى عشرين ريـــالا .. وحتى هذه فانها بقية من مبلغ استدانته والدتي من « أبو حليم » البقال ، بعد أن تأكد من أنني ساسافر . خمسة الاف ريال !؟لعلني أهذي ، وكدمات تلك الايام القاسية الشظفة ، ما زالت تثارهـــا على بدني واهلبي الشاحب المصفر . أهكذا يكون الانتقال مـــن الفقر الى الغنى ؟ من الانسحاق الى البذخ ؟ دون مقدمات ؟ وهل سيصدق « أبو حليم » ان ذلك الطفل ، عماد الذي كان يحمـــر وجهه خجلا ، عندما يطلب منه أن يكيل له السكر أو الارز ، ذلك الطفل ، سيصبح بعد ساعات مالكا لمبلغ هائل قدره خمســة الاف ريال !؟ هذاعدا عن رواتب العام الدراسي التي تبلغ بمجموعهـا عشرين الف ريال ، مضافا لها علاوة اللغـة الانجليزيـــة التي هي تخصصي . وزوج خالتي الدهان ، كيف سيتلقى الصدمة عندمـــا أبعث لوالدتي ثلاثماية دينار دفعة واحدة ، وهو الذي كان دائما يراهن على انني « ساقط » لا نفع مني ولا فائدة ، بل كـــان

يصفني « بالداخون » لانه رآني ذات مرة ادخن سيجارة في سوق المخيم . زوج خالتي يكرهني منذ الصغر ، لأنني كنت أغلب ابنه الذي يكبرني بثلاثة أعوام ، على الرغم من ضآلة جسمي ، وما زال يكرهني ، لانني لم أوافق على تلميحاته التى ابداها أمامي بعد ان تخرجت من المعهد ، والتي اراد بها اجباري على خطبة ابنته السمينة . خمسة الاف ريال ؟! مبلغ يكفي لقلب دماغ الانسان من شكله البيضوي الى شكل مخروطي .

هكذا ! دفعة واحدة ! عربون ، وستشتري والدتي ثلاثة أثواب بيضاء تطرزها عند أفضل خياطة ، وسترمي تلك الاثواب الحاسرة المنكبة التي مللت رؤيتها على جسدها ،وسوف تستريح من الخياطة تبيع الماكينة ، تتخلص منها ، ستنام ليلها الطويل دون خوف من تكاليف الصباح ، والواح الزنك في سقف بيتنا ، سنستبدلها بالاسمنت المسلح الذي يقاوم المطر ، ونهاد الصغيرة ، ستتوقف عن مشاكسة والدتي عندما تشتري لها حقيبة جلدية ، ومريلتين للمدرسة ، أما سعيد الجامح ، فستلتف حوله كل بنات المخيم عندما يلبس أول بدلة في حياته ، لو كان والدي حيا ، لبعثت له ثمن أفضل طقم من الهيلد الانجليزي ، ليجلس بين أقرانه ، ممتلىء الجيب ، مزهوا بثمرة ابنه ، لو كان حيا . قد اشتري سيارة في نهاية العام ، أعود بها الى عمان ، أتعرف على عمان الكبيرة التي لا أعرفها حتى الان ، رغم السنين الطويلة التي عشتها فيها ، أتجول مع الاهل والاصدقاء ، نقوم برحلة الى المناطق الجميلة ، لماذا لا اشتري سيارة ؟ فالسيارات هنا رخيصة جدا ، لكن .. نادية ، اذا اشتريت سيارة ، فلن أتمكن من خطبتها في الصيف القادم .

ـ ما بالك سرحت يا عزيزي ؟ أرايت ؟ لقد انساك المـــال شقاء الطريق ، عما قريب ستصبح من الاغنيـــاء ، ستقول باعلى صوتك « يا زمان الفقر ولي » ثم انفجر ضاحكا ، فشاركتـــه ، وسرعان ما امتزجت ضحكاتنا بهدير الجيب . ومنصور يصر عـلى تغيير جو الكآبة الذي هيمن علينا خلال الطريق ، قال :

ـ في القنفذة ، سترى جسدا بلوريا ، امرأة أشهى مـــن الشهوة ذاتها ، هل سمعت « بظفرة » ؟

ـ كلا طبعا .

ـ انها امرأة رائعة ، ستراها بالتأكيد ، فهي ترعى أغنامها بين مقاهي القنفذة .

قلت ـ وهل يوجد عشب بين المقاهي ؟

ـ انها تأكل الورق والكرتون وأعقاب السجائر ، أغنـــام « ظفرة » تأكل أي شيء ، و « ظفرة » أصبحت أشهرمن القنفذة، تسير دائما بين المقاعد ورواد المقاهي ، حاملة عصا قصيرة .

وخفت صوت منصور ، رق ، ثم فاضت نبراته بشهـــوة غريبـــة .

ـ تستر نصفها الاسفل « بالوزره » ، أما ثدييهـا ، فتبـــدو واضحة تحت قطعة الشاش الاسود المتهدلة فوقهما باهمال،اسمها « ظفرة » هل سمعت بهذا الاسم من قبل ؟

ـ بالتأكيد لا .

ـ أنت لا تعرف في الدنيا شيئا ، هل تعلم بانني اشتهيهـا ، بكل ما في الكلمة من مخاوف والغام ، رغم انها سوداء فاحمـــة البشرة ، ذات مرة أطار الهواء قطعة الشاش عن صدرها ، فالتمع

ثديها الاسود المصقول ... كان بقية الركاب نائمين ، هكذااعتقدت أنا ، بدليل ذلك الشخير الجماعي الذي كان يصدر من بينهم ..

ـ ومنذ ذلك اليوم يا عماد ، وأنا اشتهي « ظفرة » ، ارقبها، ظفرة لا تبالي بشيء ، احيانا تغني للقحم ، ترقص في الاعراس ، قال عنها « بوعايظ » بأنها أمهر الراقصات في المنطقة ..

منصور كان ينسى بين اللحظة والاخرى بانني لا أعرف شيئا عن القنفذة واهلها ، ولم يقل شيئا عن « بوعايظ » الذي مـــر اسمه كالسهم في عبارته الاخيرة ...

ـ وظفرة ، تضرب عرض الحائط بكل تقاليد القنفذة ، ظفرة دائمة الفرح ، تقاطيع وجهها تفصح عن فرح مثبت كالوشم .

قلت غير مكترث

ـ كم عمرها ؟

ـ في الثلاثينات على ما أعتقد . لكنها مطلقة ، هي الـــتي طلبت من زوجها الطلاق ! تخيل ؟ انها رائعة ، جاءت مـــع أهلها من بلاد اليمن عندما كانت طفلة ، ولما عادوا الى اليمن ، بقيت هي مع زوجها ، ثم تركته لتعيش مثلما يحلو لها ، هفـــا كل شيء ممكن ، هي سوداء ، لكنها شهية يا عماد .

ثم هز رأسه . فقلت محاولا التثبت من فكرة بدأت تراودني.

ـ لا تقل لي بأنك تحبهـــا .

قال ـ الاصح انني اشتهيها ، أو أحبها ، لا فرق ، لهـــا قامة مربوعة ممتلئة ، وحين تمشي ، تتحرك مؤخرتها المشدودة « بالوزره » ، فتنثني خواصرها كالراقصات ..

... نادية لها قامة ممشوقة كعود الخيزران ، لكنها نحيلة ، بيضاء ، متوردة الوجنتين ، فمها لؤلؤة اذا ضحكت ، لكنهـــا لا تستثير مكامن الشهوة التي يتحدث عنها منصور ، كنت انتظرهـا عند موقف السيارات أيام الخميس ، اصطحبها الى المطعـــم ، أو المتنزه ، نتحدث كثيرا ، عن المستقبل ، والزواج والاطفـــال ، نضحك كثيرا عندما نختلق صور الخلافات الزوجية ، نحلم ببيت جميل ، نزرع حوله الازهار والاشجار المثمرة ، نتخيل أطفـــالا شقر الشعر ، بيض الوجوه ، لا بد ان أفاتـــح منصور بالموضوع ، ساطلب يدها منه ، فالعام الدراسي طويل ، ومنصور لن يخيب ظـــــني ....

ـ هل تحب يا عماد .

صفعني سؤال منصور ، جذبني من سماء الحلم الى صحـــراء الجيب .

ـ من أين خطر لك هذا السؤال ؟

قال ـ لان صوتي قد بح وأنا احدثك عن « ظفرة » والقنفذة وأنت سارح .

قلت ـ بل انني أتابع حديثك ، « ظفرة » شهية وتتسكع بين المقاهي و ...

ـ لا تقل تتسكع .

قال بانفعال . ومنصور يغير على سمعة « ظفرة» أيضا ! ..

ـ سأواجهها يوما ما يا عماد . بأي شكل .

قالها بألم وتصميم ثم تثاءب .

★ ● ★

ـ ٤ ـ

نسمات باردة نسمات باردة ، فجر حيي دامع ، رمـــــال رطبة مبلولة ، وعلى يميننا بحر موغل في الزرقة والبكاء . مشارف القنفذة ، الى الجنوب بيوت طينية ، عشش من القش تنتظـــــر الشروق بصمت واجلال ، طيور غريبة تسافر في جوف المدى الممتد الى افق رمادي ، يسحق الظلام الهارب المختبيء في صنـــــدوق الجيب، وفي عيون الركاب النائمين. لكزت منصور الذي كانيصدر شخيرا متقطعا ، فصحا وهو يتأوه من رقبته التي آلمته بفعـــــل انحنائها على كتفي خلال نومه . سألته :

ـ أتلك هي القنفذة ؟

فرك عينيه ثم نظر من خلال القضبان قائلا بحماس بحـــارة كولومبوس .

ـ يا الهي ، لم يخطيء السائق انها هي .

كان معظم الركاب يغطون في النوم ، ورؤوسهم تتدلى عـلى صدورهم وأكتافهم ، دعوت منصور لمشاركتي متعة النظر الىالبحر، فقال لي الرجل الملتحي الذي تبين انه لم يكن نائما .

ـ « أشوف عينك ما تفارق البحر يا استاذ ، مـــــــا في بلادكم بحر ؟ » .

ـ « فيه بحر ، لكن اليهود احتلوه » ..

ـ « آه ، يلعن أبو اليهود ، لك الله يا استاذ ما لهم دين » ٠ وبصـــق ٠

هدأت سرعة الجيب ، ثم توقف ، قال صاحب اللحية

ـ « جاء وقت صلاة الفجر يا الله » ثم بدأ يهز الركاب مـــن أكتافهم ، واحدا تلو الآخر بينما قفز الســـائق من مقعـــده ودار حول الجيب قائلا بصوت مضطرب ٠

ـ « يللا انزلوا ، بسرعة ، نبغى نضع المعلمة في الصـندوق، لانها تبغى تولد ، يللا » ٠

نزلت أنا ومنصور ، ثم بقية الركاب ، وذهب كل واحـــد منهم لقضاء حاجته في الخلاء والتيمم ، بينما نزل على ممسكـــا بذراع زوجته التي كانت تولول ، فاسرع منصور بفرش بطانيـات الركاب دون استئذان في أرضية الصندوق ولما حاولت مساعدة علي في حمل زوجته قال :

ـ لا تتعب نفسك يا استاذ ، يمكنني القيام بذلك ٠

استلقت على ظهرها في الصندوق فغطاها علي ببطانيـــة ، وجلس الى جانبها كقابلة قانونية ٠ الغريب أن منصور كان يتالـم مثل علي ، بل كان منقبضا ، لكنه لم يستطع عمل شيء ، اذ من غير اللائق ان يسمح علي بتدخل شاب أعزب كمنصور في مسائل زوجية خاصة جدا ، كالولادة ، حتى ولو كان صديقه ٠ منصـــور

الذي جلس بجانبي أثناء صلاة الفجر سمعته يدعو ربـــــه الرفق بزوجة علي وتيسير ولادتها ، كان يدعو ربه بصوت مسموع وعجبت لانفعاله ، ورقته وحرارته . خلال الصلاة تجلى صوت أمامنا المسن، الذي قرأ سورة الفلق بأناة وعناية ، لكن المعلمة ، اطلقت عـدة صرخات متتالية أفسدت على الامام سحر تأثيره في هداة الفجر ، وخلته يتلو آية جديدة حينما قال ـ لا حول ولا قوة الا بالله .

لما انتهينا من الصلاة ، كان علي يقفز من مؤخرة الجيب ، ويداه ملطختان بالدم ، بينما افتر ثغره عن ابتسامة باهتـــــة ، تتارجح بين الفرح والحرج ، وكان العرق يتصبب من جبهتـــه ، ليتخذ له مساربا في وجهه العريض وذقنه ، هو لم يكن فرحـــا تماما ، كانت ابتسامته موشاة بأحزان عميقة ، قال له منصور .

ـ هـــا ، بشر .

فانفلق فم علي عن ضحكة عالية ، ظل يضحك ، والـــعرق ينقط من أسفل ذقنه ، وبدا غريبا جاحظ العينين ، أحمر الوجـه كالسكارى ، في قسماته مزيج غريب من الجنـون والبراءة والفـرح ظل يضحك والدموع تنز من زوايا عينيه ، لتختلط بحبات العرق ، في حين تسمر بقية الركاب في أماكنهم فتحوا أفواههم دهشـــة ، وسمعت أحدهم يقول لصاحبه بصوت خفيض .

ـ « الاستاذ ارتج » .

قلت ـ اخبرنا بماحصل هل ولدت زوجتك ؟

استجمع نفسه بصعوبة ، توقف عن الضحك ، مسح وجهـــه بكفه اليمنى قال :

ـ لقد ولدت زوجتي طفلا ، طفلا . وتابع الضحك بجنون، فتنهد منصور وهو يقول :

ـ الحمد لله .

صافحت علي مباركا بالمولود الجديد ، ففعل الركـــاب مثلي ، قلت لعلي :

ـ ماذا تريد أن تسميه ؟

فقال على الفور :

ـ «فجر » . فجر يا استاذ ، لانه ولد عند الفجر ، انـــه اسم فظيع ، رائع ، اليس كذلك ؟

كان الشفق الاحمر ، يتدرج في أفق القنفـــذة ، ومسحت

وجوهنا نسمة باردة ، فارتعشت ، وبادر منصور قائلا ـ لنـــترك الوالدة وطفلها في الصندوق ونصعد نحن الى السطح ريثمـــا نصل القنفذة .

* ★ *

القنفذة . بيوت طينية ، سوق صغير ، شوارع ترابية،دكاكين هواء دبق حار ، دراجات نارية ، سيارات جيب ، مقاهيواسعة مقاعد طويلة ، عمال يمانيون ، اباريق شاي فوق مناضد متسخة ذباب شرس ، ميناء عثماني عتيق يستدير في شاطيء ضحل ، بحر يهيمن على الغريب بشكل اسطوري ، يستدرجه ، بدعوة للتأمل والشرود ، وفي المساء ، يمضغ رمال القنفذة المتداخلة في مياهه كالاسافين ، ينثر اصدافه وعرائسه بالقرب من البيوت ، ومعهد المعلمين وادارة التعليم التي تحاذي شاطئه ، ثم ، في المساء أيضا ، يلم أطرافه ، ويعود الهوينا ، قطعة دامسة تترامى في الدجى ، وصوتابعيدا موحشا ، يذكر الغريب بقسوة السفر .

القنفذة . مدرسون غرباء ، بسراويل متسخة ، وقمصان مفتوحة عن صدورهم ، وجوههم متعبة ، هنا لا وقت لتصفيف الشعر ، فالمسافة شاسعة بيننا وبين فتيات عمان ، اليوم الثالث على فراق نادية ، والوجد يشعل النار في صدري ، تتسع المسافة بيننا ، وتغيب عمان ، لماذا أتركك يا عمان ؟ .

في المقهى نادى منصور النادل اليماني ، طلب منه احضار ابريق شاى ، مرت «ظفرة» من جانب مقعدي فلاحقها منصور بنظراته الشرسة . جسد حجري نافر ، ارداف ممتلئة ، ونهود شامخة تصارع قطعة الشاش الاسود ، (ظفرة)غابت خلفالسيارات المصطفة أمام المقهى همس منصور في اذني .

ـ هل رأيتها ؟ فقلت بخبث ـ نعم انها ظفرة حسب الوصف.

ـ هي بلحمها ودمها . قال ثم تنهد . منصور ، هذا الشقي البارع ، في الهرب والثبات ، يرمي شباكه أنى ذهب ، لكنه هنا ، في هذه الصحراء ، لن يصطاد سوى العناكب ، لن يستطيع ، فكل شيء هنا مختلف تماما ، ولن اصدقه ، ها هي تمر من جانبنا مرة اخرى دون ان تنظر اليه ، دون ان تحس بوجوده ، من هو ، ومن هي ، غريبان حطاعلى شاطيء ناء ، هو يؤكد الظفر بها ، لكنها بعيدة ، بعيدة .

في ادارة التعليم طلبت تعييني في مدرسة « بالحارث » التي يعمل بها منصور ، فوافق مدير التعليم ، الذي كان يجلس خلف طاولة عريضة مرصعة بنجوم وكرات نحاسية لامعة ، ثم حولني الى موظف الديوان الذي سلمني ورقة مكتوب عليها صيغة تعهد تقليدي ذا علاقة بالواجبات الملقاة على المدرس ، ثم صرفوا لي خمسة الاف ريال ! وضعتها في جيبي غير مصدق ، وعدت الى المقهى ، فوجدت منصور بانتظاري .

لا بد ان حياتي مع منصور ستتيح لي فرصة الحديث معه بمسالة نادية ، اذ ستزداد علاقتنا تماسكا ، ولن يمانع في أن اخطب نادية منه ، انه طيب ، ساكتب الان رسالة لنادية ، واخرى لوالدتي واخوتي ، اخبرهم بكل ما حصل ، وابعث لهم ثلاثمائة دينار ، حسب الاتفاق ، لا بد أنهم ينتظرون .

في المقهى تعرفت على الكثير من المدرسين ، فالمقاهي ، هي

المقر الوحيد لكل الغرباء ، حيث لا وجود للفنادق في القنفـــذة ، يتالفون بسرعة عجيبة ، يرفعون الكلفة فيما بينهم ، يتاففـــون باستمرار ، يطيب لهم الحديث عن خصوصياتهم ، ويفلسفون الامور على اهوائهم ، احد المدرسين ، صار يتحدث عن رحلته من جـــدة الى القنفذة ، مدعيا بانه شاهد في الطريق حيوانا يشبه الاســـد ، لكن منصور تصدى له ـ « تخنتها » . فتوتر المدرس .

ـ هل تشك في صدقي ؟
ـ لكن الاسود لا تعيش في الصحراء .
ـ لقد رأيته بعيني وهو يقفز امام الجيب في الليل .
فتدخل مدرس اخر ..

ـ نفس الاسد الذي رأيته في العام الماضي ؟ .
وتراجع المدرس الاول .

ـ حتى لو كنت كاذبا ، فقد رويت لكم حادثة والســـلام ، ثم ماذا يهمكم لو كنت كاذبا ؟

واردف كمن اكتشف فكرة هامة .

ـ كل واحد منا يستطيع أن يروي حادثة ، ولكن ما الهدف ؟ أليس امتاع الجالسين واضاعة الوقت ؟ وبالتاكيد فالراوي غـــــير مطالب بالصدق ، لان الحادثة الصادقة ، لا تكون ممتعة ، أمـــــا الكـــاذبة . . . الكذب افضل آلاف المرات من الصدق ، صـدقوني . قلت انا مستشعرا الاستفزاز ـ لكن البقاء للصدق والحقيقة .

قال ـ يا عزيزي ، أجمل الشعر اكذبه ، وامتع الروايات اكذبها . وهل في الادب العربي ما هو امتع من قصة سيف بن ذي يزن ؟ ولكنها كما تعلم اسطورة ، والاسطورة كاذبة ، ولانها كذلك ، فهي ممتعة .

قال منصور ـ لكن تلك الاسطورة تحمل أهدافا نبيلة ، فما الهدف من الادعاء برؤية أسد في ..... توقف منصور . عدل جلسته بينما بقيت عيناه معلقان حيث نظر اول مرة ، قال باستغراب ـ الى أين يذهب علي بطفله ؟ التفت ، فرأيت عليا يحمل بين يديه شيئا ملفوفا ببطانية سوداء ، يرافقه مدرسان آخران ، وشيخ ملتح يلبس ثوبا أبيض . قال مدرس :

ـ انهم يتجهون الى المقبرة .

قال آخر ـ سمعت بان الطفل الذي ولد في السيارة التي جئتم بها قد مات اليوم .

ـ مات ؟؟ فجر مات ؟ وتراءت لي لحظات ولادته كاملة ، صراخ والدته ، فرح علي ، ضحكاته الجنوبية ، يداه الملطختان بالدم بعد الولادة . قفز منصور عن المقعد . وصار يركض باتجاه الجنازة الصغيرة .... ولد فجر ومات في أقل من يوم ، بعد أن سافر الاف الأميال في بطن امه ، مات فجر ، والجنازةالصغيرةتتجه الى المقبرة ، لا يقطع صمتها سوى تراتيل الشيخ ذي اللحية البيضاء ، وعلي المسكين ، تغرورق عيناه ، ثم تنسكب دموعه ، كان متحمسا لفكرة فجر ، وفكرة الابوة ، كان حارا في فرحه ، وهو كذلك الان في حزنه ، لم تنشأ بعد أية علاقة بينه وبين فجر الذي

عرف الموت قبل والده ، الا ان عليا أحبه منذ ولد ، ها هـــو الان يسجيه على ارض المقبرة ، ثم يغيب وجهه خلف يديه السميكتين ، يبكي بصوت مسموع ، بينما يغمر التراب جسد فجر الصغـــير ، وتغرورق عيوننا ، احزن على فجر ، احس بوجود علاقة من نوع ما بيننا : انا وفجر . هذا الذي لم أره الا بعد أن مات ، علاقـــة لا استطيع تفسيرها الان، أوجدها ذلك الفرح الجنوني الـــــذي تفجر من وجوهنا عندما ولد فجر ، والحزن العميق الذي رافـــق مراسيم الدفن ... عندما انتهينا من دفنه ، كانت مسحة كســيرة من الحيرة ، تشتت كلمات العزاء التي قلناها لعلي الـــــذي فاجأنا بقوله :

ـ أنا لا أبكي على فجر !

★ ● ★

ـ ٦ ـ

« قم يا استاذ قم » . يلطم الصوت اذني ، يجدها شبه مقفلة، يرتد ، ثم يعود ليطرق الصيوان من جديد ـ (قم يا استاذ قـــم ، المدرسون راحو البحر ، الدنيا صارت العصر ، قم .....)

يتكدر حلم حريري ملأ اجفاني ، أحاول طرد الصوت ، أضع كفي لصق اذني ، فيهتز المقعد الخشبي من تحتي ، يصر في اذني صوت احتكاك مفاصل المقعد الرطبة . فجأة يسافر الحلم ، تنفتح اذناي على مصراعيهما ، يندفع خليط من الاصوات المتداخـــلة .

ازيز دراجات نارية ، محركات سيارات ، صراخ على طريقة « القحم »٠ نداءات متكررة على النادل ٠٠ و « قم يا استاذ قم » جميعها تتدفق في رأسي ، انهض ، تلتقي عيناي بشاب أسمر مرتوق الثياب ، انفه مدبب ، على رأسه طاقية بيضاء متسخة ، وفي يده صينية شاي فارغة ٠ استجمع صوتي ٠

ـ أين ذهب المدرسون ؟ يجيب النادل بحدة ٠
ـ « الى البحر يا استاذ ، قالوا لي أبلغك وقت تفيق » ٠

والبحر ليس بعيدا ، سالحق بهم ، أرقب الغروب عند الشاطيء المذبوح ، فبعد ساعتين من الان ، سينطلق بنا الجيب الى قرية بلحارث ، ولن أعود هنا الا في نهاية العام الدراسي ، وجيبي الان تحمل خمسة الاف ريال ، لاول مرة يجتاز حياتي حدث مهم كهذا ، سارسل لوالدتي مبلغا ، تسدد به دينها،وساشتري سريرا وبطانية جديدة تختلف عن هذه التي تغطيت بها في المقهى ، انها رطبة مطلية بما يشبه القتام ، ساسكن ومنصور في غرفة واحدة ، بيت واحد ، ستكون نادية قريبة مني ٠ متى ستصلها رسالتي التي بعثتها في الصباح ؟ أما زالت تحبني ؟،وهذه المسافة الشاسعة التي تفصلنا ، الا تصنع الحاجز بيننا ؟ لكنذلك اليوم لا بد آت ، اليوم الذي ساجرؤ فيه على البوح بعلاقتنا لمنصور، لانني لن احتمل أكثر ، لن استطيع يا نادية ، وكل يوم يمر ، كل ساعة ، تزيد من قسوة البعد ، تزيدني احساسا بفقدانك ، منصور هو الوحيد الذي سيعيدك لي ، حتى في غربتي ٠

ها هو الاستاذ علي أيضا يرقب الغروب وحيدا ، يتربع على

رمال الشاطيء ، يسرح بغيبوبة في الافق البعيد ، الغروب طري وساحر في القنفذة ، الغروب خيمة ندية تستر القنفذة من لهيب النهار ، الا أثر لاحد عند الشاطيء سوى علي ، وأين زوجته ؟ ماذا فعلت تلك المسكينة ، لعلها الان تسرح مثل علي . عندما حييته ، رد بحرارة ، قال أهلا وسهلا ، تفضل اجلس يا استاذ ..

ـ عماد الساقي . قلت فارشا اصابعي على صدري .

ـ أهلا وسهلا استاذ عماد . أنا علي سليمان أعمل مدرسا هنا منذ خمس سنوات .

ـ تشرفنا . وجلست بجانبه على الرمل ، لم أعرف كيف أبدأ حديثي معه ، ارتبكت ، البداية دائما صعبة ، والمجاملةأقسى، لكنه قطع الطريق علي حينما قال مفصحا عما يدور في خلده .

ـ غريبة هذه الدنيا ، الموت فيها أسرع من الحياة .

قلت ـ يا استاذ شد حالك ، الدنيا بخير ، والذي جاء بفجر ، كفيل بخلق غيره .

ولا أدري كيف تم ترتيب تلك الكلمات التي خرجت من فمي بعفوية ، دون تحضير ، اذ من عادتي ان اجهز نفسي لمواقف العزاء التي تتطلب نوعا من العبارات التي صيغت خصيصا لتلك المواقف ، تابع علي :

ـ كنت ساحتفظ لفجر بذكريات فريدة ، عن لحظاتولادته، اين ولد ، متى ، كيف ، كل هذا حسبته سبقا انسانيا ، أذكر به فجر ، الذي أصر على الموت قبل معرفة هذه الذكريات .

ثم تناول القلم من جيبه ، وبدأ يخطط على الرمل بطريقة عشوائية . كانت الشمس قد غطست خلف أفق البحر المحدود به عندما قال :

ـ في أي قرية عينوك ؟
قلت ـ في بلحارث .
ـ انت أيضا في بلحارث ؟ كلنا في بلحارث ؟ أنا أيضا في بلحارث !

ـ اذن سنعمل معا في مدرسة واحدة .
ـ سيسعدني ذلك .
ثم تذكر ـ طبعا هذه أول مرة تدخل فيها القنفذة .

قلت ـ نعم
قال ـ هل تعرفت على منصور في الجيب ؟

ـ انا اعرفه منذ أيام الدراسة في المعهد ، كان يسبقني بسنة دراسية واحدة . رفع حواجبه وقال :
ـ عظيم اذن علاقتكما وثيقة قبل الغربة ، على كل حال منصور أفضل من غيره ، سترتاح معه ، لانه طيب . ثم التمعت عيناه علي ..
ـ طبعا حدثك عن ظفرة ؟
وتباعدت شفتاه عن بعضهما ، فظهرت اسنانه البيضاء ، بينما أجبت :
ـ حدثني ، لكنني لم أفهم شيئا .

ـ انه مهووس بها ، هل رأيتها ؟
ـ مرة واحدة . الحق ان منصور معذور .
ـ لكن الغرباء لا يجتذبون انتباهها ، على كل حـــال ، سترى ما لا تتوقع في هذه الصحراء ، ثم اردف :
ـ هل أعجبتك القنفذة ؟
ـ لا مجال لابداء رأي محدد بها ، لكنها فاجأتني .
فتنهد علي ، ثم نظر صوب البحر باقتضاب .
ـ عـــلى كـــل حـــال انت أعـــزب ، ولا يهمك أين تنام ولا أين ستترك زوجتك ، المشكلة مشكلتنا نحن المتزوجـــون .
سالته ـ أين زوجتك ؟
ـ وضعتها في بيت أحد المدرسين الذين يعملون هنـا ، أمـــا أنا فكما ترى ، كأنني مهرب ، أحاول قدر الامكان ، التظاهـــر بالملل ، لكي أخرج من البيت .
ـ لمـــاذا ؟

ـ لان صاحب البيت يقضي نهاره في الدوام ، ومن غير اللائق ان اجلس مع النساء وحيدا ، على كل حال ، بعد قليـــل سننطلق الى بلحارث ، حيث سنستقر هناك في بيوتنا .

ـ كم تستغرق الطريق الى بلحارث ؟
ـ بسيطة ، خمس ساعات . أجاب بتهكم .

.... بالمقارنة مع طريق جدة ، فانها بسيطة ومنصـــور لم يظهر حتى الان ، ترى أين ذهب ؟
ـ هل رأيت منصور ؟

قال ـ رأيته قبل ساعة مع « بوعايظ» ٠
ـ ومن هو بوعايظ ؟
سألته وقد تسلل الى رأسي احساس باهمية بوعايظ هـــذا ٠
ـ انه فراش المدرسة في بلحارث ، الم يحدثك عنهمنصور ؟
ـ كـــلا ٠

وخلت علي يتحدث مع نفسه حينما قال بصـــوت خفيض لا يكاد يسمع ٠
ـ ألم يتركا هذا الطبع القبيح ٠
ثم قطب جبينه ، عض على شفتيه باسنانه ، قال بشرود ٠
ـ غريب هذا الولد منصور ٠
ونظر الى ساعته ، ثم تثاقل حتى وقف قائلا :
ـ لم يبق من الوقت سوى نصف ساعة ، وبعدها سننطلق الى بلحارث ، ساذهب الى زوجتي لنستعد للسفر ، هل ستبقىهنا أم٠٠
ـ سابحث عن منصور ٠
ـ اذن سنلتقي عند الجيب ٠ قالها بينما تحركت يده لتمسح الرمال التي علقت بمؤخرة بنطالة الازرق ٠ ولما صافحني مودعـا ، لمحت على رقبته آثار مرض جلدي عتيق ٠

عند الجيب ، كان الركاب يلملمون أمتعتهم وحقائبهـــــم ويناولونها للسائق الذي يرتبها ويحزمها بالحبال على سطـــح الجيب ، ومنصور لم يحضر بعد ٠

انتهى السائق من حزم جميع الامتعة ، وجلس الركـــاب في أماكنهم ، بانتظار منصور وبوعايظ اللذين تاخرا ، مرت الدقائق ،

اتخذ كل راكب مكانه النهائي في الصندوق ، أما علي وزوجته فقد جلسا الى جانب السائق .

قلت لعلي من خلال النافذة .

ـ ما العمل ، لقد تأخر منصور ؟

قال ـ الم أقل بان هذا الولد غريب .

انطلق صوت ـ أين ذهب ؟ ولاول مرة اسمع صوتا نسائيا يتفاعل معي منذ ان غادرت عمان ، انها زوجة علي الجالسة عند النافذة ، والتي أضناها السفر بالسيارة من عمان الى جدة ، ومن جدة الى القنفذة ، لا بد انها تتمزق انتظارا للحظة الانطلاق ، فهي ما زالت تعاني من الآم الولادة ، وأوجاع السفر .

قلت لها ـ والله لا ادري . فتأفف علي ..

ـ ولكن أين يذهب مع بوعايظ ؟ الم يتركا هذا الطبع ؟ .

لم أعلق ، نظرت الى الطريق المؤدي الى السوق ، فرأيت منصورا ومعه رجل أسود ، نحيل ، قصير القامة ، يلبس ثوبا أبيض ، وبيده مسبحة طويلة .

قلت ـ فرجت ، لقد جاء .

قال السائق الذي مل الانتظار ـ « لوحدة والا مع بوعايظ ؟»

فاجاب علي الذي مط رأسه أمام زوجته ليصل الى النافذة .

ـ لقد جاء الاثنان ، منصور وبوعايظ . عندما ركبنا في الصندوق ، كان الركاب يبدون امتعاضهم بكلمات لم أفهم منها شيئا ، لكن منصور وبوعايظ لم يهتما .

★ ● ★

- ٧ -

كل شيء كما هو ، الايام تتكرر ، واللحظات ، كما لو انها دقات ساعة رتيبة . قرية بالحارث ، تقع أسفل جبال عسير ، التي قرأنا عنها في تضاريس الجزيرة العربية ، حينما كنا صغارا . جبال عسير ، تؤخر شروق الشمس عن قرية بالحارث كل صباح ، ربما كان هذا هو السبب الكامن وراء استرخاء أهلها ، وتأخرهم في غفوة الصباح . قرية بالحارث ، مقررة في (خطة البريد) ، ساعي البريد يمر منها كل اسبوع ، يأتي بالرسائل الواردة لاهالي القرية والمدرسين ، ويضعها في مقهى « بعرة » . أحيانا يكسل ساعي البريد ، فيضع رسائل القرى المجاورة في مقهى « بعرة » أيضا ، فنقوم بايصال الرسائل للمدرسين في قراهم ، انطلاقا من ذلك الاحساس المشترك ، باهمية الرسالة للغريب . بعد أن وصلنا القرية بأسبوعين ، اشتريت دراجة نارية ، لانها ضرورية كما اجمع كل المدرسين الذين تعرفت عليهم في القرى المجاورة ، أما منصور ، فقد كانت دراجته العتيقة مخبأة في بيت بوعايظ ، طوال فترة غيابه في عمان . وساعي البريد يغيب عنا كالقمر ، انتظره من بداية الاسبوع ، اتمنى لو تتقلص الايام السبعة التي يغيبها ، لتصبح يوما ، ساعة ، احيانا أتمنى لو ينتهي الاسبوع برمشة عين ، ساعي البريد يأتي في سيارة جيب رمادية اللون ، استطيع ان أصفه ، اسمر يحمل الفرح ، طويل كالايام السبعة التي يغيبها عنا ، وضاحك كخرير الماء ، في وادي بالحارث.

كل يوم أتامل جبال بالحارث ، طرقاتها الترابية ، عششها ، بيوتها الحجرية العتيقة ، التلال القرمزية الصغيرة التي تفصل

البيوت عن بعضها ، أشجار الدوم والراك على حافة الـــــوادي ، والمدرسة التي تقبع في سفح الحدبة الكامدة . بالحـــارث أصبحت وشما داكنا تخلل غربتي واهابي . كلما ذهبت الى المدرســـــة ، أفاجأ بمنظر النخيل المحروق ، في بالحارث ،تحترق رؤوس النخيل بفعل الصواعق الموسمية المنخفضة ، اصبحا لاحتراق ،جـ زءا مـــن المشاهد اليومية التي أراها .

السقف المحدودب الذي يغطي هذا البيت ، والجـــــدران المعوجة الناتئة تتحول تدريجيا الى قبر مظلم بفعل سناج الوابـور الذي يلتصق بها . لما تفاوضنا مع صاحب البيت حول الاجـــرة ، أصر على ثلاثماية ريال في الشهر ، وفي القرية لم نجد افضل من هذا البيت ، رغم انه مبنى من الحجارة المرصوصة فوق بعضها بـــــلا انتظام ، ورغم انه مكون من غرفة واحدة و باحة صغيرة . صاحب البيت لم يترك لنا مجالا للمساومة ، قالها مقطوعة ..

ـ ثلاثمائة ريال تدفع مقدما. .

محاولة منصور لتخفيض الاجرة كانت مقنعة ، فقد قـــــال لصاحب البيت .

ـ في العام الماضي كنت تأخذ مني مائة ريال ، فلماذا تريـد الان ثلاثمائة ؟ رغم ان البيت كما هو ، لم يتغير فيـــــه شيء ، ورواتبنا أيضا لم تتغير .

لكن صاحب البيت أصر بجشع على المبلـــغ الذي طلبـــه ، مستغلا ذلك الاحساس ، بعدم الاستقرار ، الذي كنا نعاني منه خلال اليوم الاول لوصولنا قرية بالحارث .

المناظر التي رأيتها حينما دخلت القرية لاول مرة ، تعيد نفسها كل يوم ، المسلك الضيق الذي يؤدي الى بيتنا ، الصخرة الكبيرة التي تجثم عند الباب ، والكلاب الضالة التي تتمطى دائما ، على بعد امتار قليلة من الصخرة . الشمس في الصباح ، تشرق من وراء بيت الاستاذ علي ، القابع على رأس تلة تشرف على الوادي .

بوعايظ ، لما وصلنا القرية ، اقسم بشرفه على أن ننزل في بيته ، نأكل ، ونشرب ، وننام ، الى ان نجد بيتا نسكن فيه ، لم يتح لنا فرصة الرفض أو حتى مناقشته ، فقد طلب من سائق الجيب حال وصولنا القرية ، ان يتوجه الى بيته ، حيث انزلنا حقائبنا وأسرتنا واشياءنا الاخرى التي اشتريناها من القنفذة ، ثم جلسنا تحت العريش ، ريثما اخلى البيت من زوجته واطفاله الذين ذهبوا الى بيت جدهم .

شهران كاملان مرا ، ولم تصلني سوى رسالة واحدة من نادية ، تراها نسيتني ؟ ! والرسالة واحة الغريب في هذه الصحراء ، مفتاح ذاكرته ، كل يوم (اثنين) نجلس في مقهى بعرة ، لننتظر البدر ، ساعي البريد ، بعرة هي صاحبة المقهى ، اطلق عليها أهالي القرية هذا الاسم ، لانها قصيرة القامة ، سمينة ، عرجاء ، الذي يراها من بعيد وهي تمشي ، يخالها بعرة اسقطتها ناقة من مؤخرتها فتدحرجت ، امراة في الخمسين ، سوداء البشرة ، بيضاء الشعر ، محدودبة الظهر ، عجزها دائم البروز ، بسبب انحنائها الدائم ، ناحية قدمها اليسرى التي وصفها « معيظ » مدير المدرسة قائلا :

ـ انها أقصر من اليمنى بشبر .

مقهى بعرة يتوسط سوق الثلاثاء على الطريق الرملي المؤدي الى مناطق محايل وجيزان ، في مقهى بعرة ، تتوقف جيبات التويوتا وشاحنات المارسيدس المتجهة الى جيزان ، وبعرة كما قال معيظ مدير المدرسة .

ـ أصبحت من أغنياء بالحارث من وراء هذه المقهى . معيظ المدير حاول الزواج من ابنتها الوحيدة « دخنة » لكي يستولي على أرثها ، رغم انه حر وهى سوداء من سلالة العبيد ، ورغم انه يعرف الدور الذي تقوم به دخنة لاجتذاب سائقي الخط الى مقهى والدتها ، لكن بعرة لم توافق وقالت له

ـ « يا مرجوج ، ما شبعت من النساء ، أربعة طلقتهن والخامسة عندك ، وتريد بنتي ؟ تبغى تكملها على نص الدرزن ، فشرت عينك وعين المدرسة اللى انت مديرها » .

شهران كاملان مرا ، دون ان اعرف شيئا عن سر هذه العلاقة بين منصور وبوعايظ ، هذا الثنائي الغريب ، منصور بعد أن يتناول طعام الغذاء ، كل يوم يركب دراجته ، يذهب بها الى بيت بوعايظ القريب ، يزمر له ، فيخرج بثوبه الابيض ،يركب خلف منصور على الدراجة ، وينطلقا الى حيث لا أدري . اليوم « كبستهما » على حافة الوادي ، كانا يتحدثان كالندامى ، لما وصلت ، استقبلاني بحرارة ، قال بوعايظ ببراعة .

ـ يا استاذ عماد ، ليش ما بتجي معنا كل .... لكن بوعايظ لم يكمل ، كانه تذكر امرا خطيرا ، تضايق منصور ، قذفه بنظرة

محشوة بالغضب والتانيب . من هو منصور حتى يتحكم ببوعايظ بهذا الشكل المؤلم ؟ . منصور هذا الغريب كالامطار الموسمية ،ياتي ويذهب مثل النمل الطيار ، ما الذي يجمع بين « فراش » مثـــل بوعايظ ، وبين مدرس كمنصور ؟ . جلست معهما ، تحدثنا طويلا عن النخيل ، وأيام الفوح * ، والتمر وعن سوق الثلاثاء والنســاء الحسان في دروب السوق .

سوق الثلاثاء ، مجمع لكل تجار القرى المجاورة ، يبيعـــون فيه ويلتقون . النساء في يوم الثلاثاء يذهبن الىا لسوق الذييفتح ابوابه في الاسبوع مرة ، يلبسن أجمل الثياب ، يضعن على رؤوسهن الطيب والحناء . في سوق الثلاثاء ، يلبس الرجال أيضا أنظـــف ثيابهم ، بعضهم يحملون المسدسات ، يتباهون بها ، في يـــوم الثلاثاء ، نشتري من السوق مؤونة الاسبوع كاملا ، ونصـــــاب بدوار التخمة في يوم الثلاثاء أيضا .

للوهلة يبدو بوعايظ بريئا ، يتحدث كطفل ، يسأل عـــن بديهيات ،حـ تى اذا انتقل الحديث الى موضوع النســاء والجنس ، تغيرت طريقته في الحديث ، وارتفع حاجبه بينا لحين والاخر ، لينبيء عن مراس وخبرة طويلة في أمور النساء . بوعايظ تـــزوج منا ربعة نساء ، واحدة ماتت بالحمى ، الثانية خطفها منه معيظ مدير المدرسة بعدف ترة قصيرة من زواجهما ، ثم تزوجها ، الثالثـة

---

* ايام الفوح : ثلاثة أيام من شهر حزيران تشتد فيها الحـــرارة بشكل كبير وينضج خلالها التمر .

آثرت العيش مع اخيها بعد أن تزوج بوعايظ من زوجته الحاليـــة ـ يمنة ـ بنت بو شباب • مرح بوعايظ هذا • حليق الوجه نحيل، في عيونه السوداء بريق ينم عنذ شقاوة مزمنة ، ونزق متـــاخر ، صوته رفيع ، والناظر اليه لا يعطيه سنا أكثر منذ لاثـين ، الا ان معيظ ، قال لي بانه فيالاربعين ، معيظ الذي علق ذات يــــوم على علاقة منصوربـ بوعايظ قائلا :

ـ « تنشوف اخر هالرفقة لوين بدها توصل » •

ومعيظ المدير لا يتوانى في كل مناسبة عن اظهار امتعاضه من تلك العلاقة ، بل كان يعمل أحيانا الى معاقبة هـــذا الثنائي ، باجبارهما على التاخر في المدرسة ولو لدقائق ، مما يضطرنا انـا وعلي للتاخر أيضا في المعية ، معيظ حاول أكثر من مرة أن يعرف سر هذهالعلاقة ، الا انـــه فشل ، ومعيظ مسؤول عن مدرسيه ، زارني ذات مساء في البيت ، اوحى لي بخطورة هذه العلاقـــة ، وبحرصه على مصلحة منصور ، انا اتفق معه فيما يذهب اليـــه ، على الاقل من منطلق حرصي على منصور ، وحاول المدير « جـــر قدمي » لاقول له شيئا ، ولو من باب الضيافة ، لكنني أعرف السبب الكامن وراء زيارة معيظ المفاجئة ، فهو الذي يتربص ببوعايظ ، يريد الايقاع به بعد أن فشل مشروع زواجه من دخنة بنت بعـــرة ، « العبيد يتعاطفون مع بعضهم » هذه العبارة يرددها معيظ كثيرا ، وبوعايظ أسود من سلالة العبيد ، هناك علاقة ما ، تربطه بدخنـة وبعرة ، أساسها اللون ، ومعيظ ـ كماقال منصور ـ يجزم ، بـــأن بوعايظ هو الذي أفسد مشروع زواجه الاخير من دخنة ، لـــــذا فالويل لبوعايظ ، كل أهالي القرية يتوقعون انتقام معيظ ، فهـم

يعرفون من هو معيظ ، ويعرفون بعلاقته غير المقدسة ، مع الشيخ بو حربان شيخ القرية الذي ساعده فيزواجه من « شريفة » زوجة بوعايظ السابقة . رغم كل هذا ، فمنصور يقول :

ـ أنا مع بوعايظ .

اليوم ساعرف كل شيء عن علاقتهما ، سالح على منصور ، حتى ولو أدى ذلك الى انفصالنا عن بعضنا ، ترى هل يتأثر هو لو تركته وبحثت لي عن بيت اخر أعيش فيه ؟ ونادية ؟ .

آه نادية ، لقد آن الاوان للبوح بكل شيء ، ليقطع منصور راسي ، ليفعل ما يشاء ، لماذا الخجل والتاجيل ؟ وهل سياتي لخطبة نادية من هو أفضل مني ؟ حتى لو لم يوافق منصور على خطبتنا ، فانه يمكنني ان أتصرف .

صحيح انني أحب نادية ، لكنني قد أضطر للبحث عنغيرها اذا رفضمنصور ،حصوصابعد رسالتهااليتيمة ،ومن تظننفسها لتقول لي بانها لن توافق على سفري في العام القادم ؟ .

قال لي بوعايظ ـ « كيف شفت بالحارث يا استاذ ؟ هل أعجبتك ».

قلت ـ طبعا ..

قال ـ « لك الله يا استاذ انها أحسن قرية في منطقة القنفذة ، فيها سوق الثلاثاء ، والغيل * بيمر من وسطها ، والنخيل مثل التراب في وديانها ، بعدين فيها مدرسة » . ثم أردف بحماس .

---

* الغيل : الوادي الدائم الجريان .

ـ « لك الله أنها أحسن من القنفذة » . فتدخل منصور .

ـ لكن القنفذة مدينة ، فيها كهرباء وماء ومعهد المعلمين والبحر ، كل شيء في القنفذة متوفر .

ـ « لكنها وسخة ، لك الله انها بالحارث أنظف منها » .

قال بوعايظ باستفزاز ، ثم ارسل نظرة متفحصة ناحية الجنوب .

ـ « يللا نمشي يا استاذين ، معنا نو * » فأيده منصور وركبنا الدراجتين ثم سرنا ، كانت موجة عارمة من السحاب والغبار تندفع نحو القرية من الجنوب ، ريح عاتية ، تقصف أشجار الشوك والراك ، تهز النخيل بعنف ، فيبدو جميعه منحنيا مرخيا أغصانه الصلبة المتكسرة . نزل المطر ، شديدا قويا ، مصحوبا ببريق يشق السماء البيضاء ، تبدو الجبال والوهاد بيضاء ثم يحجبها الضباب ، وصلنا البيت ، دخلناه ، كان السقف يسيل كالمزاريب ، من كل مكان ، آثرت الوقوف على الصخرة الجاثمة أمام البيت ، مطر الصحراء لا يصاحبه البرد ، قلت أغتسل ، استمر المطر ، زكيا غريبا ، مهاجرا يحط في القرية ، نزلت السيول من أعالي جبال عسير وبلجرشي ، تجمعت كلها في سيل واحد يقطع بالحارث الى نصفين ، ازداد الماء في الوادي ، سحب الصخور ، اقتلع النخيل من على أطرافه ، توقفت دراجة منصور بجانب الصخرة . نزل عنها ، مستحيل ان يترك بوعايظ الا بعد ان يوصله الى بيته ، كانهما اخوان لا يفصلهما حتى المطر والمطر هنا شرس ، يغيرحتى جغرافية القرية ،فتنمحي معالم الطرق نهائيا ، وتتقصف أشجار كثيرة قد تشكل علامة أو حدا ، فاصلا ،

● نو : مطر .

في المطر تتعطل الدراسة ، خوفا من السيول ، ويختبيء الناس في بيوتهم وعششهم ، هربا من البرق ، والرعد المرتبط بأساطيرهـــم وخرافاتهم ، وقف منصور الى جانبي ، قال :

ـ الا تخاف الاصابة بالانفلونزا ؟ . لم أجب . كنت أحس بنشوة غريبة، لم أعهدها منذ دخلت هذه الصحراء ، كأنني مـــن كوكب اخر ، أشاهد المطر لاول مرة في حياتي ، تقصفت أغصـان ، طارت عرائش ، تفجر الفطر في الارض ، تكسرت أشـــياء كثيرة ، وأنا أقف على الصخرة ، أحيانا افتح ذراعي ، اكتفهما ، أجلس ، أقف ، احس برغبة جارفة ، في الرقص والصراخ والركض ، بـــين الجبال والوديان ، والغيوم تملأ السماء ، تصطدم برؤوس الجبال ، يشقها برق ، أبيض ، أشهب ، ورائحة الارض المبلولة تشـــدني ، تجلدني بسوط ذكريات قديمة قديمة . ازداد حبـــورا ، انسى ، يدخل منصور الى البيت ، أركض ، لا أدري الى أين ، لكـــنني أتابع الركض ، مجرد رغبـة تدفعني ، تحركني ، ادوس الارض المبلولة الطرية ، توحل قدماي ، الهث ،يخرج الهـــواء من فمي حارا ، كأنفاس نادية ، أجلس بين الصخور ، أنـــادي ، تجيبني الجبال ، اصداء ، اصداء ، لا وقت للخوف ، أتناسى منصـــور ، اناديها ، هذا وقت الطهر ، تجيبني الصخور ، فـــراغ ، فراغ . نادية قبليني ، دعيني أتوحد في خاصرتك ، وصدرك . هي لـــم تغب عني لحظة ، كانت ، كانت ، لكنها تتسرب الان ، ككـــل تلك الاشياء التي خرجت من داخلي وأهابي الى حيث لا رجعـة،

احفن بيدي الرمال المبلولة ، اضغطها ،اطلقها كعصفور في الهواء ، فتعود الى الارض التي خرجت منها ، تتحد مع الرمال التي بينها كانت وعاشت ، اتمنى لو أنزف ، أنزف ، اتخلص من تلكالعناصر الثقيلة التي تختلط بدمي كالزئبق ، اليوم وغدا وكل الايام خمر ، ذهب زمن الامر ،الماء ينساب من بين الصخور الشاهقة ، وأنـــت صدفة لن تتكرر ، أنت يا نادية دوران القلب حول بؤرة أرقـــة ، وبذرة تعيش في ثنايا ريح مسافرة ، ها هو المطر يتوقف ،استدعيه بالنباح ، يقولون هنا بان نباحالكلاب يستحضر المطر ، انبحككلب، أركض باتجاه البيت ، منصور ساهم بجانب الصخرة،اديرالمسجل، موسيقى « الطيب والشرير » اتخيل الفلم تماما ، شاهدناه أنـــا ونادية في عمان ، الموسيقى تخفت ،اذكر هذه اللحظة جيدا ،يأتون بالفارس ، مطويا على ظهر حصانه، ويداه معلقتـــان في الهواء ويداي تعبثان بشعر نادية ،ميتا كان الفارس ، وانا الان اذكرك ، رغم كل شيء ، من هو الطيب ، ومن الشرير ؟ هذه مشكلة . هنا نبحث عن أنفسنا ، ربماعن البدائل الغارقة في أعماق الذات ، لم لا نتزوج يا نادية ؟ ونعيش هنا مثل بقية الناس ؟ موسيقى« الطيب والشرير » ترتفع ، دقات طبول ، ترتفع في فلاء موحش ، قـــولي شيئا ، كؤلئك الرومانسيين الموغلين في استنباط المعاني المستعارة والكلمات المصقولة ، الاشياء تبدأ باللسان ، الله قال للدنـــيا ـ كوني ، فكانت .

قولي شيئا . حينما ضمتنا طاولة المطعملاول مرة في حياتنا ، لم استطع السيطرة على حلقي ومعدتي ، اللتين بقيتا تشهقان دون توقف ، اتذكرين ؟ وكدت أهرب ، الهرب ؟! انها حقيقة مذهلة،

ان يهرب الانسان ، لو هرب والدي من الحرب ، لبقي حيـــا الى الان ، لو هرب ...

ـ تعال ادخل الى البيت لئلا تصيبك الانفلونزا . صـــوت منصور ، اعرفه دون ان أنظر اليه ، ثم من سيكون غيره ، يحرص علي ، يعتقد بأنني اصغر من احتمال قسوة الغربة ، واحبـــه لا لانه شقيق نادية فحسب ، بل لجراته وحنانه . منصـور طـود شامخ من الالفة والحب . تسافر الغيوم الى الشمال ، نجلس على الصخرة أنا وهو تتقد الوان الجبال وأشجار الراك والارض تشهق ، تنتعش ، قال منصور .

ـ هكذا المطر هنا ، ساعة أو ساعتين ، يبدأ فجـأة وينتهي فجأة ، هو المطر الموسمي الذي قرأنا عنه في المدارس .

دخلت البيت لاحضر كوبين من الشاي ، كنت أرتدي بنطـال جينز ازرق ، ابتل عن آخره ، هممت باستبداله لكنـــني تذكرت ان البنطال الاخر ممزوق من جنبه . لم نكن لنهتم بملابسنـــا ، معظم المدرسين في المنطقة يمضون العام كله ببنطالين أو ثلاثـــة ، منصور ـ قال لي ـ قضى العام ببنطال واحد ودشداشة ،ومنصـور قال لي ذات مرة محاولا فلسفة وجوده هنا بان الحياة بسيطـــة وانه لا وجود لتلك التعقيدات التي يفاجأ بها المرء في المـــدن ، التقاليد والعادات واللباس الانيق .... الخ .

منصور هنا يطيل شعره المسترسل كاحلام الاميرات ، يربط حوله خيطا فيبدو كاهالي ثربان ، اهالي جبل ثربان يتركـــون

شعرهم متهدلا حول رقابهم ، يدهنون شعرهم بالزيت والطيـــب ، معيظ اعترض على شعر منصور ، ومعيظ يبدو للوهلة وسيمـــــا بدشداشته الطويلة الناصعة البياض ، وشاربيه السوداوين ، ووجهه الهادىء الذي تعكس سمرته الخفيفة لمعانا دائمـــا على جبهتـــه المصقولة ، لكن الذي يراه مفرعا ، يدرك السر الكامن وراء تلـــك الكوفية التي لا تفارق رأسه ، فهو اصلع الى حد البريق ، ولاتوجد في رأسه سوى بضع شعيرات فوق اذنيه ، ومعيظ طالب‌منصور مرارا بقص شعره ، لكن منصور ، هذا الغريب ، يسخر من مـــديره ، لا يطيعه بشيء ، كل الحياة عند منصور لعبة لا تستحق الاهتمـــام، احيانا يتسامى أمامي ، يكبر ، اتمنى لو اصبح مثلـــه ، لو أنسى هموم الدنيا ، شيء واحد استطعت حتى الان ان اتحكم بعواطفي تجاهه ، ان امنع نفسي عن التفكير طويلا فيه ، الحب ، لا أدري أية موجة تلك التي اجتاحتني ، اى غزو هذاالذي يبعد عنى شبـح نادية ، التي احبها ولا احبها ، انها محفوفة بالمخاطر ، مـــاذا لو عرف منصور ؟ ،كل شيء قابل للكسر ، أفكر بها فأحس بغصـــة في حلقي ، الم في معدتي ، لا ضرورة للتفكير فيها اذن ، لكنـــني ساتزوجها اذا وافق منصور ، أيضا منصور هذا احبه ولا احبـــه، يذهب مع بوعايظ بعيدا ، يلتقون عند الوادي ، هـــا قد حـــان الوقت لمعرفة سر علاقتهما ، لن يستطيع منصور الصمود أمـــام الحاحي ، ساجبره على البوح بأى شكل ،سكبت‌الشاي في الكوبين، قلت لمنصور ـ ألسنا أصدقاء ؟ فقال باستغراب ..

ـ وأخوة أيضا ..

ـ الا تهمني مصلحتك ؟

ـ أنت أدرى . قال وما زالت علامات الاستغراب باديـــة في عباراته ، قلت

ـ بل انك تعرف كم احبك وماذا تعني بالنسبة لي . قـــال وقد ضاق صدره .

ـ قل بربك ما الذي تريده .

ناولته كوب الشاي ، والوقت عند منصور ثمين أيضـــا ! انه نافذ الصبر ..

ـ أنا بصراحة لسن مرتاحا لعلاقتك بـ « بوعايظ » .

ـ لمـــاذا ؟

ـ لانها علاقة غيرمتكافئة ولانها تثير حولكما الشكوك . ثـــم انت تعرف أكثر مني بان معيظ يتربص ببوعايظ ، وقد تقع أنـت في شراكه أيضا . رشف من كوب الشاي فخرج البخار من فمه حـارا

ـ شراك ، مثل ماذا ؟ قال .

ـ أنت أدرى ، ما الذي يربطك ببوعايظ ؟ . وضع كـــوب الشاى بين راحتيه ، لفه ، تامل البخار المتصاعد منالشاىالساخن، تابعت أنا .

ـ أعتقد انه ليس من الانصاف انتخفي علي امرا كهذا طالما انني صديقك ورفيق غربتك . أما اذاكنت تنظر لي على انني مجرد نزيل يشاركك البيت ، فلاحرى أن ننفصل ويبحث كل واحد منـــا عن صديق يسليه في غربته .

وخرجت كلماتي في النهاية متهدجة حزينة .

قال ـ الامر ياعـ ماد لا يستحق كلهذا الاهتمام .

ـ لماذا ؟

ـ لانه تافه.

ـ ولكنني مصر على معرفة كل شيء .

ـ كل ما في الامر انني ارتاح له ويرتاح لي ..

ـ وغير ذلك ؟ قلت كالمحقق

ـ لا شيء صدقني يا عماد .

ـ بدانا نكذب . فابتسم قائلا :

ـ لا والله لا اكذب ، الصحيح أنني أرتاح له ثم اننا نصنـــــع شيئا عند الوادي ونشربه . ثم أردف بطريقة فهمت منها أنــه مقدم على البوح بكل ما لديه .

ـ بوعايظ علمني طريقة لصنع الخمر ، ليكن هــذا الكـــلام سرا فانت تعرف هنا ما عقوبة شارب الخمر ، وبوعايظ لهاصدقــاء ياتون بالقات من اليمن ، هل تعرف ما هو القات ؟ .

ـ سمعت به أيام الدراسة في أحد الموضوعـــــات المقررة عن عن الزراعة في اليمن .

ـ انه مركب الى عالم آخر ينقلك الى دهاليز غيبيةوذكريات لم تحصل ابدا . انه صانع الذكريات لمن لا ذكريات له ، تاكـــــله كالأرنب ، تقرضه وتمتص عصارته ، ثم تضع ما تبقى بين اللثـــة وجلدة الخد داخل الفم ، وتستمر في امتصاص العصارة حيث تبــدأ بالنسيان ، تنتقل الى عالم اخر يا عماد ، ترى أشياء لم تعهدهــا هل تشاركنا « البسطة ».

* ★ *

- ٨ -

حبيبي عمـــاد

رسالتي ستكون طويلة ، أطول بكثير من ليالي الصحراء التي تصفها برسالتك الاخيرة ، وقررت زيارة والدتك قبل ان أكتـــب هذه الرسالة ، ولما وصلت بيتكم بجانب البقالة كانت والدتك تجلس أمام الباب فارشة تحتها بساطا عتيقا،ما ان رأتني حتى احتضنتني كم هي طيبة والدتك يا عماد ، وقبلتني عدة مرات وهي تقـــول هذه القبلة لي ، وهذه لعماد ، وهذه لرجوع عماد ، وهذه ٠٠٠٠٠ أعرف بانها لمتفعل ذلك الا لانني « أحمل رائحتك » كما قالـت ، الحنونة تلك المراة والدتك ، وادخلتني البيت ، جلست على مقعد دراستك ، قالت ، هنا كان يدرس عماد ، ولهذه الطاولة ، الفضل في نجاحه بالتوجيهي والمعهد ، ثم مسحت بيدها الغبار عن الكتب المكدسة على الطاولة ، قالت ، كان عماد يقرأ كثيرا في أيـــام المعهد ٠تصفحت بعض الكتب ، لم تكن تخص مناهج المعهد، أعرف بانك قرأت الكثير من الكتب حتى صارت الكلمات تخرج من فمـك مثقفة حارة ، كنت تتحدث عن الوطن بحرارة المناضلين ، وحاولت ان أقلدك ، صرت أقرأ وكنت تشجعني وترسل لي الكتب السميكـة فاسهر الليالي الطويلة مثلك ، وكنتكلما قرأت شيئا جديدا ازدادت ثقتي بك ، كنت تكبر في عيني ، صرت عملاقا ، لم أتخيل أنـــك في يوم من الايام ستسافر ، كتلك الجموع الموسمية التي نودعهـــا في نهاية الصيف لنستقبلها ثانية في بدايته ، وحتى أخي منصور فقد تشاجرت معه عدة مرات ، لكن منصور شيء اخر ، مختلف تمامـا عنك ، انت الذي حملتني كل هذا العبء من الكتب والامل ، لماذا

سافرت يا عماد ؟ اوصتني والدتك بانأطلب منك ارسال مبلـــــغ من المال لها ، الحياة هنا غالية باهظة التكاليف ، ستقول الان بان هذا ما دفعك للاغتراب ، لكن الفقراء هنا يا عماد ، يرددونمقولة شهيرة تعرفها أنت « معك قرش بتصرف قرش ، معك عشرةبتصرف عشرة » وكان من الممكن ان تعيش هنا ، ان تمارس حياتككمئات الالوف من البشر ،ولم يفت الاوان بعد ، يمكنك الانتهاء من هذه اللعنة التي طاردتك منذ طفولتك ، السفر ، ولما سافرت احسست بان تلك الطائرة قد اختطفتك مني ومن والدتك الـــتي بقيـــت دموعها تنساب عبر الخطين المحفورين بين خديها وانفها ، اخذتك الطائرة الى فضاء مجهول . كم هي قاسية حياتي بدونك ياعماد ، وكم هي ثقيلة مدحلة الساعات وهي تمشي ببطء ، فوق صـــــدري بعد هذا الشرخ العميق الذي خلفه سفرك . لما سافرت أنت ، بقيت أقرأ مثلما عهدتني ، بل أكثر ، صحيح ان فراقك قد شغلني اكثر منلقائك ، هذه حقيقة يجب ان اعترف بها ، الا انني أجدالفرصة للقراءة ، أما زلت تقرأ مثلما كنت ؟ لكنني في رسالتك الاخـــــيرة لمست شيئا ساحدثك به حينما تعود ، أمامنا أشياء كثيرة سنتحدث بها على رصيف هذا العام .

انني اثمن يا حبيبي رسالتك الحضارية التي تؤديهـــــا في مجاهل الصحراء ، لكنني لست على ثقة من أنها كانت الهدف من وراء سفرك ، لنكن أكثر صدقا ، ماذا لو خيروك بين البقاء حيـث أنت واكمال رسالة التعليم التي يفترض أنك ذهبت من اجلهـا ، وبين اقتطاع نصف راتبك ؟ هل توافق على هذا العرض ؟ المشكلة انني سيئة الظن أصبحت ، المشكلة هي في هذه الازمة ، هـــــذا الشـــــرخ .

وتقول في رسالتك ، بانك ستختصر الزمن ، وتختصر الشقاء ، لتعود قادرا على عمل المستحيل ، أيمكن ذلك ياعماد ؟ ومنصور ما زال يختصر الزمن مثلك ، حينما عاد في العام الماضي ، كان محملا بالريالات والهدايا ، فهل اختصر الزمن ٠

حينما هممت بمغادرة بيتكم طلبت مني والدتك أن أزورها باستمرار ، فهي تراك من خلالي ، كانك تبث روحك المسافرة البعيدة من خلال حنجرتي الخاوية ٠

قبلتني والدتك بحرارة وسرت في الشارع الموحل وحيدة ، أحسست بان طرقات المخيم كلها عيون ترقبني ، الابواب المشرعة والنوافذ ، سقوف الصفيح الصدئة ، كل شيء في المخيم كان يطاردني ، وأسأل نفسي هل اقترفت ذنبا ؟ وانت المسافر يا عماد لا انا ، ولاول مرة اكتشفت بأن ما قرأته عن الوطن ليس أكثر من دغام أسود على ورق مصقول ، اذا لم يقرأ في طرقات المخيم الموحلة ٠ وعندما سافرت كدت أحرق كل الكتب والدفاتر التي القمتني أياها ٠ ولكنني هنا ، لم أسافر واشتاق لك كثيرا ، حينما أتذكر لحظة انطلاق الطائرة بك وبرفاقك المدرسين ، أحس بأن شيئا ما غير صحيح يهتز في كيان علاقتنا ، وفي فهمنا لتلك الكتب التي قرأناها ٠ لست أدري ما الذي يدفع هذا المجنون ، منصور ، للسفر ، فنحن لا نحتاج لمساعدته ، أوضاعنا كما تعلم جيدة ، منجرة والدي تكفي لاعالتنا وتزيد ، فلماذا يسافر ؟ لكنني أحبه ، فهو أخي الوحيد ، رغم عناده وشقاوته ، منصور بالمناسبة شقي الى أبعد الحدود ، ذات مرة ادمى عين أبن الجيران ، ولما جاءه

الشرطي ضربه ، وفي المخفر بصق علىالضابط ، كان يعتقد بانــه على حق ، دائما هو على حق !حتى في غربته !٠

عماد ٠ قلت في رسالتك بانك ستخبر منصور بعلاقتنـــــا ، انا أوافقك على أنه يجب ان ندخل مع منصور من أوسع الابواب ، وأعرف بانه لن يكون مغلقا لدرجة الرفض ، الا انني مترددة ، ولا أجد القدرة على تخيل طريقته في الرد على مثل هذا الخبر ، هل سيكون هادئا ؟ هل سيغضب ؟ على أنني اكاد أجزم بانه لن يهتم، فهو دائم الانشغال واللامبالاة ٠

اشتريت مفكرة تقويم تحتوي على ثلاثماية وخمـــس وستين ورقة صغيرة ، مزقت أوراق الايام التي مضت وكل يوم أقطع منها ورقة ليقترب موعد عودتك ، لكنها ما زالت سميكة ، كان الورقـة الاخيرة تستعصي على الظهور ،كلما مزقت ورقـــــة ، أحسست أن اليوم المدون في رأسها لن يعود ، هل ستعود انت ؟

أحبك يا عماد ، اكتب لي باستمرار ، انا دائمة الشــــوق لك ، والدتك بخير ، قبل أخي منصور ، بلغ تحياتي الى جميـع زملائك ٠

قبلاتي والى اللقــــاء ٠

ناديـــــــة

* ★ *

- ٩ -

انه يتململ ، يشعل سيجارة ، يحرك فخذيه العريضتين ، كأن الكرسي من تحته مزروع بالدبابيس ، وجهه الابيض ، شعره، ورموشه المتقوسة تكتسب تدريجيا لون الغبار الذي يعصف بالقرية منذ الصباح ، الغبار هنا يجب أن يدخل الى انوفنا ، رغما عنها، أحيانا يختصر الطريق ، فيتجمع عند زوايا الفم ، يتراكم ،نغسل وجوهنا ، نتمضمض ، ثم يتجمع ثانية ، أنا أفضل السكوت ، لان الكلام يتطلب حركات مستمرة للشفاه واللسان ، الامر الذي يؤدي الى انتقال الغبار من زوايا الفم الىداخله ، تمنيت أكثر من مرة ، جادا ، لو أن للانسان فتحة اخرى في جسده ، مخفية ليتمكن من التحدث براحته ، دونما خوف من الغبار ، لكنني لغيت تلك الامنية عندما تذكرت ان الله لم يخلق الانسان لكي يغالب الغبار ، الوحيد الذي يستطيع التحدث هنا بطلاقة ، دون خوف من تسرب الغبار الى فمه ، هو علي ، لان خديه منتفخان عند منطقة الذقن والشفتين ، ولا وجود لتلك الزاوية الصغيرة المعتمة على يسار فمه أو يمينه مثل منصور أو مثلي ، ومن الغريبأن عليا يستغل هذه الميزة والاضافة الالهية ، ليهيمن على الجلسة ،ويخطف الاضواء دونما عناء ، وعلي ، بحكم خبرته الطويلة في الصحراء ، يحتاط لكل شيء ، فهو يحلق شعره كل شهر بموسىالحلاقة ،فيبدو رأسه كلما قص شعره ، « كرأس خنزير » على رأي منصور الذي لا يتوانى عن اطلاق أنسب الالقاب عليه ، غير عابيء برضاه أو سخطه ، أما لباس علي فهو الدشداشة الناصعة البياض ، كل يوم يلبس دشداشة وزوجته تحسن الغسيل ، أحيانا أحسده على هذا النعيم الذي يعيش فيه مع زوجته ، اتمنى لو أن نادية تعيش معي

هنا ، لكنني أصبحت أعاني من الغثيان كلما تذكرتها ، والضجر ، أحس بضرورة نسف هذا الحاجز الذي أصنعه بيدي ، معمنصور ، لا بد من مصارحته ، فقد مللت هذا الكتمان ، هذا الخوف ٠قسمات وجه منصور تتقلص الان ، يشعل سيجارة اخرى ، سيقول شيئـــا ها هو يضع رجلا على رجل ، ثم يتكيء بيده اليمنىعلى الطاولة أفضل أنا دائما التمدد على السرير ، والاسترخاء ، أطباء القلـب ينصحون بالاسترخاء ، لست مصابـــا بمرض في القلب ، الا انني أفضل الاسترخاء ، بعد ان أخلع ملابسي كلها باستثناء تلك القطعة الصغيرة التي استر بها مصدرا هاما من مصـــــادر ارقي ٠ كانني ومنصور في مباراة ٠

ـ من يعلق الجرس ـ هو يريد ان يقول شيئا ، تقاطيع وجهه ونظراته المفاجئة توحي بذلك ، فلماذا لا يتكلم ؟ لعله خائف مـن تسرب الغبار الى فمه ، فالبيت رغم انه مقفل، الا ان الغبار يتسرب من شقوق الباب القديم المهتريء ، ومن السقف المصنوع من خشب الراك وسعف النخيل والشوك ، هو ليس بيتـــا ، لانه لا يوحي بالاستقرار ، وقبولنا للعيش فيه ، لا يعني قبولنا لهذا النمط مـــن الفقر الذي لا يطيقه حتى الفقير ، ربما كانمجرد محطـــة ٠ في الليل عندما أود النوم ، اسمع خشخشات غريبة في السقف ، احس بوجود أشياء تزحف بين سعف النخيل والشوك ، أضيء الكشاف اليدوي الذي لا أنام قبل أن أضعه تحت وسادتي ، أضيئه ، فـــلا ارى شيئا ، أتغطى جيدا بالحرام رغم الحر القاتل ٠ ذات ليلـــة كنت نائما ، حلمت بوجود عقرب في السقف ، عيناه كعيني بـوم ، وناباه كأنياب ذئب جائع ، حدقت به ، حدق بي ، وبهـــــدوء نزلت عن السرير مبديا مزيدا من الود لعيون العقرب ، لما وصلـت

باب البيت ، فتحته بسرعة ، وهربت ، بدأت أركض ، رأيتعينين تلتمعان في الظلام ، راعني المشهد ، توقفت ، أخذت العينـــان تقتربان ، تبينت صاحبها ، كان ضبعـــا ، اقترب مني ، أدرت ظهري ، هربت الى البيت ، فتحت البـــاب ، فوجدت العقرب الضخم يغرز انيابه في رقبة منصور ، صرخت فصحوت من نومي ، امتدت يدي تحت الوسادة بحركة غريزية ، تناولت الكشـــاف ، أضأته ، سلطته علىمنصور ، كان نائما والعرق يتصبب مـــــن جبهته ورقبته ، أحسست بالاطمئنان ، تذكرت ذلك المكان مـــن السقف الذي رأيت فيه العقرب أثناء الحلم ، سلطت الكشاف اليـــه فقفز قلبي هلعا ، رأيت عقربا أصفر يمشي ببطء فوق عود رقيـق من خشب الراك ، هل تحقق الحلم ؟

حملت عصا « الطواريء » ، وكنت مستعدا لانزال السقـف كله اذا لم اقتل العقرب ، بعد ان قتلته فكرت بأمر المبيت داخـــل البيت ، وقررت ان لا أنام بعدها تحت أي سقف ، ومن يومها وأنـا أنام خارج الغرفة عند الباب ، حيث لا سقف ولا عقارب ٠ منصـور كان يعتقد بان للزواحف اخلاق خاصة بها فهي لا تؤذي النائـم ، وقال لي مرة :

ـ هل سمعت في حياتك ان أفعى أو عقربا لدغ انسانا نائما ؟٠

وكان ينام مطمئنا ، غير عابيء بهلوساتي ٠ منصوراشترى ناموسية ، مصنوعة من الشاش الابيض ، ووضعها فوق ســـريره ، كلما أراد النوم انسل من تحت طرفها ، هو لم يشتر الناموسيـــة خوفا من العقارب ، بل لكي تحميه من البعوض الذي يلسعنـــا طوال الليل ويسبب أمراض الحمى ، ومنصور رسم على ناموسيته

مقطعا لامرأة عارية من الامام ، الحقيقة انه أتقن ذلك الجزء المثير من المرأة ، ورسم خارطة فلسطين أيضا ، لكنها لم تكن متقنة تماما ، وكتب بالدهان الاحمر على الطرف الاخر من ناموسيته « ظفرة » ... ما الذي يريد اثباته ؟ ما الذي يدفعه الى هذا الحب الجنوني لتلك المرأة ، ظفرة ، هل يحبها حقا ؟ ، هل يشتهيها ؟ أم أنه يريد أن يقول أشياء كثيرة اخفق عن قولها في حالات وعيه ؟ .. ومنصور لم يقل شيئا حتى الان ، هل أفاتحه بموضوع نادية ؟

هو يفضل الصمت الطويل ، أحيانا انتزع منه حتى الاشياء التي يريحه ان يقولها ،أما انا فافضل الحديث عن أي شيء أفكر به ، اذا خطر لي مشروع أحدثه عنه ، وهو يستمع . مستمع جيد منصور ، لكنني الان لااجد أي شيء أحدثه عنه سوى مسألة نادية ، ففكرة السيارة التي قررت شراءها في نهاية العام حدثته عنها طويلا ، حتي انني توصلت الى تحديد نوعها ولونها ، وقد وافقني على كل شيء ، ولما سألته عما اذا كان ينوي شراء سيارة ،فوجئت بمجموعة مشاريع مختزنة في رأسه ، قال لي بانه سيشتري سيارة في نهاية العام مهما كلف الثمن ، وسيقضي اجازته في بيروت ، وسينتقي أجمل الفتيات فيها ، يبطحها على السرير ، ويفرغ فيها سموم العام الدراسي كله ، قلت له بان الحرب ما زالت في بيروت ، وان الذهاب اليها مجازفة ، فقال :

ـ كل الحياة مجازفة ، واجمل ما في الكون امرأة شامخة النهود ، ممتلئة الافخاذ ، تنام تحتي ، اسحق عظامها، اصهرها بين يدي ، أسمع صراخها وأنينها .

ها هو ينهض عن المقعد ، يفتح النافذة ، تدخل البيتموجة من الغبار ، ينظر خلالها الى القرية ،يقفل النافذة ، يتنهدبضراوة ، يتجه بعصبية الى باحة الدار ، يحمل بيده فاسا ، يبدأ بحفـــر الارض ، لماذا يحفر ؟ هل يريد ان يزرع شجرا هنـا ؟ مـــا زال يحفر ، يلهث ، ليفعل ما يريد ،اسمع صوت ارتطـــام العطيف بمعدن ، أنظر اليه ، يلقي بالعطيف جانبا ، هل وجـــد كنزا ؟ يركع على ركبتيه ، يمد كفيه فيالحفرة ،يخرج التراب، ثم بصعوبة يخرج من الحفرة صفيحة كبيرة ، يضعها بالقرب من كومةالتراب، يفتحها ، يخرج منها زجاجة مملوءة ، انهالخمر ،

ـ ما هذا يا منصور ؟

ـ خمر معتق ، صنعته قبل اسبوع ودفنتـــه في الارض ، « سنعمرها » سوية وبدون « بوعايظ » ما رايك ؟

ـ هل اختلفت مع بوعايظ ؟

ـ لا تحلم بهذا ، لان بوعايظ هو الاول والاخير في هـــذه القرية ، ثم يكمل :

ـ هل تشاركني « السكرة » الان ؟

ماذا افعل ؟ سأشرب يا منصور رغم انني لا استطعم خمرك هذا ، وأرفض هذه الفكرة من أساسها ، قبل اسبوع تسلحت بكل ما حفظت من قيم ونصائح عن الصحة والمستقبل وحاولت اقنـــاع منصور بضرورة ترك هذه العادة السيئة ، ورغم انني كنتأشاركه شربالخمر ، الا انني كنت مستعداً للاقلاع عن هذه العادة المستجدة علي ، لا أدري ان كانت طريقتي في الاقناع غير موفقـــة ، أم أن

منصور لا يريد الاقتناع . فقد قال لي يومها انه يشرب لاسبـــــاب لا يعرفها ، ثم قال :

ـ لماذا لا أشرب ، لماذا لا أخزن القات . انه يفتح الزجاجة الان بأسنانه ، يدلق جزءا منها في فمه ، يناولني اياها قائلا : اشرب ، فهذه الزجاجة هي أجمل ما في الوجود .

أشرب . طعم الخمر يلذع ، ابصق ، ثم أعيد الزجاجـــــة لمنصور ، يتابع الشرب .

ـ هل تريد ان ترى مفعول هذا الخمر الذي شربت منه الان ، سأجري أمامك هذهالتجربة . يقول . يتجه الى لوحة التقويـــم الشهري المعلقة على الجدار ، يقطع منها ورقة يضعها علىالطاولة ، ثم يسكب قليلا من الخمر عليها ، فيتصاعد الدخان من ورقة التقويم الشهري !! أشد الزجاجة من يده ، أقذفها بعيدا ، ترتطمبالجدار ، تنكسر ، تفور بقايا الخمر على الحجارة الساخنة ، يصرخ منصـور ـ هل أنت مجنون ؟ أحمق ؟ ما الذي فعلته ؟

أصخب ـ سأجيبك عندما يتوقف الدخان الذي يتصاعد مـــن أمعائك ....

ـ ... اخت دين .....

لن اجيبه ، فالخمر تعبث في رأسه الان ، مفعول هذا الخمر سريع . يشعل سيجارة ، يدور في باحة الدار ، يشد علىسيجارته ، يدور رأسي ، يسألني بجدية وهدوء

ـ هل تحب يا عماد ؟
ـ تقريبا ..
ـ مصيبة يا رجل ، ماذا تعني بـ تقريبا ، الا تحب ؟
ـ نعم أحب
ـ وانا أيضا . صرنا اثنان .
اضحك رغما عني ـ من هي ؟
ـ هي لا تحبني .
وهو يحبها . عظيم . الحب من طرف واحـــــد . اتحمس للفكرة . منصور يحب !
ـ من هي ؟
ـ أنت تعرفها .
ـ لا تقل لي بانها ظفرة .
ـ بل هي ، ولكن حبي من نوع اخر ، انه حب « سكس » .
ـ عظيم !
ـ وسوف تحضر ظفرة الى بلحارث لترقص في « عرضـــة » حربان ابن الشيخ التي سيقيمها يوم الخميس المقبل .
ـ رائع . اذن سترى عشيقتك .
ـ أراها . قال بتهكم ثم استطرد
ـ أنتظرها كل هذه المدة لتقول لي أراها ؟
ـ وماذا ستفعل ..
ـ لقد وعدني بوعايظ بشيء .
يقول ، يقترب مني ، يهمس في اذني .
ـ ستنام ظفرة معي هنا بعد انتهاء العرضة ، بوعايظ رفيقها الروح بالروح .
يحك سبابتيه ببعضهما ثم يتابع .

ـ هو من امهر الراقصين في العرضات وهي من امهر النساء في الرقص والخلع ، ومتفاهمان على كل شيء ، سترى ياعماد .

ـ سنرى هل سيكون بوعايظ صادقا أم أنه ...

ـ طبعا صادق . بوعايظ لا يعرف الكذب .

هل لديك مانع في أن نستضيفها هنا ؟

ـ كـــلا .

ـ وأنت قل لي عن أسرارك تقضي الليل متكئا على خـدك ، تكتب الرسائل الطويلة ، قل لي ما اسمها ؟

سألته ـ مى هي ؟

ـ تلك المغدورة .

ـ أي مغدورة ؟

ـ التي تحبها وتكتب لها الرسالة تلو الاخرى .ما اسمها ؟

ويضحك بجنون .

... هل اقذف بوجهه النبأ ؟ هل افجر اسم نادية ؟ مـــاذا سيفعل ؟ وهو الذي لا يبالي بشيء ، ولكن من يدري ، قد يتغـير حينما تصل الامور الى اخته ، وقد يصحو من سكرته هذه ، كـل الرجال يتغيرون عند هذا المنعطف ، يتحولون الى ثيران هائجة ، اناكذلك' ، لا لن اقول له انا ، ساترك الامر لعلي ، علي هوانسب الناس لتوصيل هذا الخبر ، سيخبره بكل شيء بطريقته الفـــذة ، يستدرجه ، يتعرف على آرائه ، ثم يضعه أمام أفكاره وجها لوجه ، ليقطع عليه طريق الرجوع .

ـ لماذا لا تتكلم ؟ ما اسمها ؟ يتابع منصور هجومه .

ـ لم أطلب منك سوى ذكر اسمها ، لماذا تخاف ؟ أنت دائم الخوف . أنت ....

ـ فاطمة . اسمها فاطمة . هل ارتحت ؟

أقول محاولا اسكاته فيرد على الفور ..

ـ أنت كاذب .

ثم يقف . يحدجني بنظرة غريبة . يتمشى قليلا. عيناه ما زالتا تقذفاني بتلك النظرة الغامضة . يسود صمت يقطعه صوت منصور الذي يفجر كل شيء .

ـ انها نادية يا عماد . نادية اختي .

نادية ؟ أصحو دفعة واحدة . كل شيء من حولي يصدر دويا هائلا ، ووجه منصور يبقى كما هو ، جامدا ، صلدا ،يتفرس في عيوني ، استشعر المواجهة القاسية ، التي طالما اجلتها ، لكنني الان لن اتراجع ، سأواجهه مهما كلف الثمن ، لم يعد بالامكان تأجيل كلمة واحدة ، تبا للخوف والكتمان ، نادية ؟! ويعرف كل شيء ، ثم يصمت ، كل هذه المدة ، ليتركني صريع عذاباتي وكتماني ، ويضحك الان أيضا ؟ وأنا الذي راهنت نفسي على أنه سيتحول الى اعصار حال معرفته بهذه العلاقة ، انه يسجل الان موقفا . لم أتوقعه من أي رجل طوال حياتي .

منصور ؟ ما هذا الخليط العجيب من الرجولة واللامبالاة والقسوة والشهوة ؟ كالسوط انطلق صوته رغم الخمر ، مفرقعا عاتيا قويا .

ـ لماذا لا تتكلم أيها الاحمق ؟

تحتشد في ذاكرتي كل تلك الافكار التي قرأتها في الكتب ، فأقول بثقة .

ـ نعم أحبها . هذا ليس سرا ، انه حقي الطبيعي ، ومـــن حقها أيضا ، أن تحبني ، هذه مسألة محسومة بالنسبة لي ، وربما بالنسبة لك أيضا ، الا اذا كنت تنـكر عليها حقها في الحيـــاة والاختيار .

يطلق ضحكة ، يخيل لي أنها كانت محبوسة منـــذ زمن ، يقول بسخرية ..

ـ صرت منظرا يا عماد . أجيب برباطة جاش ، وجديـــة ماثلة ..

ـ لا أحب التنظير ، أحب نادية فقط .وساتزوجها ان لـــم يكن لديك مانع .... اللحظة الحامية الحاسمـــة اقتربت ، الان سيتحدد كل شيء ، وجه منصور ما زال يحتفظ بملامحه الساخرة القاسية ، يقول :

ـ مانع . يا أخي تعلم الحب . قل ساتزوجها رغما عن كـل الناس ، لانك تحبها . اعاجله بصوت يتناثر في سيل عارم مـــن الغبطة والفرح .

ـ اذن فانت موافق !

ـ طبعا ، وسارقص في ليلة عرسكما ، ولكن قل لي ، ما الذي اعجبها فيك ؟ نحولك ؟ أم عبوسك ؟ ام اصفرار وجهك ؟

لاول مرة منذ دخلت هذه الصحراء ، أحس بالفرح الحقيقي، يغمرني ، يحل عقدتي ، فينطلق صوتي رشيقا متالقا مرحا .

ـ عند الاختيار تنعمي الابصار .

ـ اذن فقد انعمى بصرها حينما اختارتك ؟! .

يضج بالضحك ، فاشاركه

ـ يجوز . ثم أتذكر

ـ لم تقل لي كيف عرفت بعلاقتنا .

يشبك يديه خلف ظهره ثم يتمشى في الغرفة وهو يقول :
ـ قبل أيام وقعت في يدي رسالة من نادية ٠ الصحيح انني لم أكن أتجسس عليك ، لكنني عرفت خطها ، فأكملت قراءتها ، هل تحبها حقا ؟ ٠

ـــ أأحدثه عن تلك الرعشة التي كانت تنتابني حينما أرى نادية ٠ وكيف كنت الاحقها عند موقف الباصات والسرفيس ، وعند أسوار المعهد العالية ، بين الاشجار ، انتظرها ، وارتعش في عـز الصيف ، كانت نادية حلما من نوع اخر ، تعيشه فلا تصحو بعده ٠ لعله الصحو نفسه ، ولعل حياتي دونها ، وهم يفتقد الحقيقة ،كنت أشتاق لها عند الوداع واللقاء ، في كل لحظة كنت أراها ، كنـــت أحس بثقل محموم يصاحب كل دقة من دقـــات قلبي ، حاولت التخلص من ذلك «الثـ قل » ، قبلتها فانسابت دقات قلبي كالمـاء في الغدير ، كنت أكتب لها الرسائل ، أمزقها ، اكتب ثانية ، كـل الكلمات كانت صغيرة عاجزة ، أصحو من النوم ، كنت ، أحييهـا رغم أنها غير موجودة في بيتنا ، فينفتح فم والدتي دهشة ، تقترب مني ، تخاطبني كمجنون أو كطفل ـ « اسم الله عليك يا بني » ٠

أخطط لمستقبل مشرق مع نادية ا أحلم ببيت ، كنت ،يضمني وأياها ، وأطفال ، وابتسامة صباحية ندية من ثغرها ، أتجاهـل تساؤلا مريرا ٠

ـ ماذا لو رفض أهلها ؟ ونادية هي التي دفعتني الى هـذه الغربة من حيث لا تدري ، كنت أشـــعر بالحزن ، أسهر الليالي طويلة جامدة ، أفكر فيها فأحس بنقص في دائرة علاقتي بهـــا ،

شيء لم أستطع الوصول الى ماهيته الا الان ، أريد أن أصنع لنادية مستقبلا مستقرا ، غير أنها ترفض هذه الغربة .

من جديد يلاحقني منصور بهراوة أسئلته .

ـ لم تقل لي بعد كيف تعارفتما .

أجيبه بخجل .

ـ في يوم ماطر ، ذهبت لزيارة خالتي ، فوجدت نادية هناك ، عرفتني بها ابنة خالتي ، صديقتها ، تحدثنا قليلا ، واكتشفت أنها زميلتي في المعهد ، ومن يومها ... صوت دراجة نارية يقترب من البيت بسرعة ، اتوقف عن الحديث .

ـ انه علي ، أعرف صوت دراجته المتقطع .

يقول منصور . نخرج لاستقبال علي الذي يطفيء المحرك قبل أن يصل ، يقول

ـ سلام

يعاجله منصور ..

ـ هلا بالورد .

يرد علي وهو ينزل عن دراجته

ـ ألفاظك تحسنت !

ـ لانني لم أراك منذ يوم الخميس

يجلس علي على السرير ، العرق يتصبب من جبهته كالعادة ، علي دائم الاحساس بالحر ، يقول :

ـ عندي خبران مهمان ، الخبر الاول عن عرضة حربان بن الشيخ .

ينتفض منصور

ـ هل اجلوها ؟
ـ اطمئن ، لقد قرروا أن تقام في مساء الخميس القادم ٠
ـ عظيم جدا ، الم اقل بان فراقك أفضل من لقائك ؟
ـ لماذا ؟
ـ لانك تأتي بالاخبار الطيبة حينما تغيب عنا ٠
ثم يتثبت منصور من حقيقة النبأ ، يسأل :
ـ من أخبرك بذلك
يتحسس علي رأسه الحليق براحة يده ٠
ـ بوعايظ هو الذي أخبرني ٠
ـ متى رأيته ؟
ـ قبل قليل ، وطلب مني أن اخبرك بذلك ، لانه لم يـــرك منذ يوم الخميس ٠
ـ هل كان بوعايظ يحمل شيئا حينما رأيته ؟ ٠
يبتسم علي
ـ بـــلى ٠
يصمت منصور ، لعله أحس بان بوعايظ قد خذله ، وذهب ليسكر وحيدا ٠ أسال علي
ـ ماذا كان يحمل بوعايظ ؟
يجيب وهو يغمز عينه ناحية منصور الذي طأطأ رأسه
ـ كان يحمل عصا طويلة
ثم يستطرد علي :
ـ الذي لم أستطع فهمه انى الان هو ، كيف يرتاح منصور لبوعايظ ؟ انه سيء ٠
يرد منصور الذي ارتاحت قسماته بعد ذلك التوتر المفاجيء٠
ـ انه أفضل رجل في القرية والقرى المجاورة ٠

يقول علي ممعنا في استفزاز منصور ..

ـ الأنه يشرب معك ؟

ـ بل لانه الوحيد الذي يقول الحقيقة ، انه رجل متمرد رغم فقره ، انت تعرف بان معيظ قد خطف زوجته .

يقاطعه علي بشماته .

ـ الا يدل ذلك على انه صعلوك غير قادر على حمايتهـا ، وهل تستطيع الدفاع عنه الان ؟

لكن منصور يتحفز ، ثم يردمستخدما سبابته لتساعـــده في تاكيد رأيه .

ـ بل لانه فقير ، بينما معيظ له مائة وسبعون رأسا من الغنم وستون بقرة وثور ، وله أراضي كثيرة عند أطراف بلحارث ، هـذا عدا عن وظيفته كمدير ، اسمع ياعزيزي ، ساقول لك شيئا ، دعك مما سمعته حول هذه القضية من أعداء بوعايظ واسمعمني الحقيقة التي رواها لي بوعايظ ، القصة ان معيظ زاره ذات ليلة في بيته ، فرأى زوجته ، وكانت ليلة ما قبل السوق ، حيث تتجمل النسـاء لهذه المناسبة ، وهذا أمر طبيعي ، لكن معيظ ، كان ينظر اليهـا بوقاحة غير عابيء بوجود زوجها ، ولا شك ان احساسه بالتفـوق دفعه لتجاهل وجوده ، لكن بوعايظ في تلك الليلة ، ضرب عرض الحائط بالوظيفة وبكل الاعتبارات وقال لمعيظ المدير .

ـ « اذا رأيتك مرة ثانية في هالديرة ، فساغمد هذا العطيف في رأسك الاصلع يا نذل » بعدها أصر معيظ على الحصول عـــلى زوجة بوعايظ باي ثمن ، فاتفق مع أهلها بمساعدة الشيخبوحربان، الكلب ، ووعدهم بقطعة من أراضيه في بلحارث ، أضف الىذلك،

ان زوجة بوعايظ لم تكن راضية عن أوضاعه المادية ، ومركـزه ، مما دعاها الى الموافقة على عرض معيظ المدير .

لكن هل تعلما كيف كان موقف بوعايظ ؟ لن تستطيعـــا أن تتخيلا هذا الرجل ، فعندما أحس بالمؤامرة ، جمع أهل زوجتـــه في بيته ، وقال لها بمنتهى البساطة ، « أنا ما بأجبرك على العيش معي ، اذا بغيت الطلاق ، فأنت طالق » ولما قالت له « مـــا أبغى أظل معك » قال لها « أنت طالق . طالق . طالق » .

الشوق لمعرفة الخبر الثاني الذي يحمـــــله علي ، يدفعني لمقاطعة منصور

ـ لقد أنسيتنا الخبر الثاني يا منصور

عيون علي تلتمع ، يبتسم ، ثم يقول

ـ الخبر الثاني هو ..

يقف ، يدس يده في جيبه ، يتمشى ، يريـــد التلاعـــــب بأعصابنا ، لا شك في ذلك ،فعلى ذكي رغم بدانته ، لا مبـــــــرر للصبر ، أقول

ـ خلصنا ، هل قرروا زيادة رواتبنا ؟

يرد علي

أرايت ما الذي يشغلك ؟ لكن الخبر الذي أحمله أهم من ذلك بكثير ، لقد قررتا لاستقالة من العمل ، غدا سترى .

يحدق في وجهي .

ـ ما رأيك يا عماد ! ألا تريد الاستقالة مثلي ؟

أقول ـ لكنك تسرعت ، فالعام في بدايته ، وقد تغير رايك بعد ان يكون الاوان قد فات •

يرد علي :

ـ اولا ، اذا تقدمت باستقالتي غدا ، فلن يسمحوا لي بترك العمل او مغادرة البلاد الا في نهاية العام ، هذا البند وارد في العقد الذي وقعته قبل خمس سنوات وما زلت أعمل بموجبه ، ثانيا ، ليس من عادتي ان اغير رايي حتى لو انطبقت السماء على الارض •

هو الذي سيستقيل ، أنا ومنصور صامدان ، كل الذين يعملون في هذه الصحراء ، صامدون ، الاستقالة تعني الانثناء ، التراجع ، الحياة هنا كفاح ، من نوع ما ، يجب ان لا نهرب من هذا الكفاح••

أقول ـ يجب ان تصمد يا علي •

يرد بألم

ـ لكن ما الهدف ياعماد ؟

الهدف •• ما الهدف ؟ أعيش هنا كالكلب ، منسي ، وفي غمرة الفضول والذكريات ، يسأل عني صديق في الوطن ، أوامرأة ابيض شعرها ، ونحل جسدها ، او ربما فتاة ، بيضاء وردية، لم يعد لي في ذاكرتها سوى لحظة الوداع • ما الهدف ؟

ـ ما الهدف ؟

يصر علي على سؤاله ، كأنه يكتشف نقطة ضعف رهيبة في كيان خصمه • يتدخل منصور

ـ يا أخي ، ما دمت تريد الاستقالة فلماذا جئت الى هنـا ؟ لماذا عدت الى هذه البلاد ؟

ـ لانني كنت أريد أن أجمع اكبر قدر من المال .

ـ وهل عدلت الان عن جمع المال ؟

ـ كلا ، ولكنني لست مستعدا لفقدان « فجر » آخر .

ـ لكن الموت والحياة بيدالله .

ـ الا اننا نحن الذين نقرر الحياة لابنائنا ، والا فما هـــو تفسيرك لموت فجر ، ولدي ؟

ـ قضاء وقدر .

ـ اذن ضع نفسك على فوهة مدفع وقل « يا قدر ».

ـ هل تنكر فعل القضاء ؟

ـ هنا انكر كل شيء الا الموت . لانه الشيء الوحيد الـــذي المســـه.

أقول ـ لكنك تعمل هنا منذ خمس سنوات .

ـ ولم أمت ... اهذا ما تريد قوله ؟ اذن انتظر حتى تموت ثم تقدم باستقالتك .

لماذا تضع الموت دائما نصب عينيك ؟

ـ لانه حقيقة .

ـ والحياة حقيقة .

ـ ولكنها هنا كذبة تستهوي الانسان فيصغي لها جيـــدا ، يعيشها ، حتىْ اذا ما نظر الى ساعته ، اكتشف ان اثمن أوقـــات النهار قد ضاعت .

ويتحدث بحرارة وايمان ، كل كلمة يقولها تخترقني، احاول تفنيد أقواله فاحس باتساع الهوة بين النقيضين في داخلي .

يقول منصور

ـ ايها الفيلسوف الم تكتشف بان الحياة هنا كذبة الا الان ؟

فيرد علي

ـ كنت أكذب على نفسي طوال خمس سنوات .

ـ والان . هل أصبحت صادقا ؟

ـ مع نفسي على الاقل. لقد مللت الغربة ، وزوجتي أيضا قرفتها ، صرنا نتخيل الوطن على أنه حلم ، فردوس يهرب منا ، باختصار نريد أن نعيش .

منصور يمط شفتيه ، يقول بكسل .

ـ تتحدث كالاموات

أقول انا .

ـ أوافق على ان الحياة هنا صعبة ، لكن الذي يريد أن يعيش يجب ان يصبر ويحتمل .

ـ الصبر يا عزيزي شيء رائع جميل ، اذا كان هو الحل ، او اذا كان لا بد منه ، لكن ما الذي يجبرك على هذا الصبر .

ـ الفقـــر .

ـ هل تتوقع أن تصبح هنا غنيا ؟ ثم يردف

ـ ساقول لك شيئا . كما تعلم فانا أعمل هنا منذ خمس سنوات في عطلة السنة الاولى عدت الى عمان ، وحاولت شراء قطعة أرض، كي أبني عليها بيتا ، لكنني وجدت بان المبلغ الذي جمعته هنا ، لا يكفي سوى لشراء امتار معدودة ، قلت في السنة القادمة سيتضاعف المبلغ ، ووجدت اخيرا بانني اركض وراء سراب لن أمسك به .

ـ لكن وضعك المادي تحسن كثيرا ، اليس كذلك ؟

ـ على حساب ...

ـ ليس مهما على حساب ماذا ، لكن المهم أن وضعك قـــد تحسن . فيرد بغيظ

ـ ألا توجد للحياة أهداف غير المادة ؟.

يقول منصور .

ـ تتحدث وكانك ولدت من جديد .

ـ الواقع أن موت فجر هو الذي بعثني من القبر .

في صباح اليوم التالي ، دخل علي من باب المدرسة رأســـا الى المدير ، وسلمه كتاب الاستقالة من التدريس ، لكن معيظالمدير ، قـــال :

ـ « وليش يا استاذ ؟ ما عجبتك ديرتنا »

فاجابه علي بزهو

ـ عجبتني ، لكن البلاد طلبت أهلها . وحاول معيظ صـده عن قراره ، الا أنه كان مصرا ، كانه اتحد من جديد في كتلـــة واحدة أمام المدير ، وربما أمام نفسه .

* ★ *

ـ ١٠ ـ

يوم السبت ، يظل جافا وحزينا ، على الرغم منقلة الحصص المقررة فيه ، وتساءلت غير مرة ، عن سر الكآبة التي تنتابني كل سبت ، فلم أجد لها تفسيرا ، ربما كانت مجرد اصطلاح ، أو عـادة

سيئة درجنا عليها : أنا ونفسي ، منذ أن بدأت العمل في الصحراء . وكلمة السبت ، ـ مع احترامي لكل الذين ولدوا في أيام السبت ـ هي لفظة ثقيلة على اللسان والمعدة في آن واحد ، ذات مرة حاولت مهادنة هذا اليوم . السبت . أحضرت قلما ودفترا ووضعت كافة الاحتمالات التي أدت الى هذه العداوة التقليدية بيننا ـ أنا والسبت . فعثرت على سبب واحد ، هو أن السبت أول أيام الاسبوع ، وان كلمة السبت ، تحمل في طياتها عملا متواصلا لمدة ستة أيام !.

الحقيقة ان هذه الثرثرة غير لازمة لما أنا بصدده ، الا من حيث ارتباطها بالسبت . فقد ابتدأ اليوم بصباح مؤلم ، استطيع الادعاء تماما ، بأن الصباح كان مؤلما ، لانني صحوت من نومي منهكا ، وكان احلام الانكسار حقيقة ، ولان فمي كان متضخما ، وحلقي يتراجع الى الداخل ، هربا من طعم غريب لا استطيع وصفه ، بينما كانت حرارة الشمس تلسع جسدي كالابر . عندما ذهبت الى المدرسة ، لم أشعر بأي نشاط ، بل احسست بارتخاء في مفاصلي ، وبرغبة غير طبيعية في النوم ، دخلت غرفة المدير ، تحدثت مع علي ، ثم منصور الذي قال لي :

ـ لم يبق سوى أربعة أيام لعرضة حربان بن الشيخ .

منصور لا يكف عن التفكير « بظفرة » ، لعلها استحوذت على حالات صحوة أيضا ، تثاءبت . أنا أجد في التثاؤب نشوة ودفئا غريبين ، ازعجني صخب التلاميذ وشغبهم في باحة المدرسة ، قررت ادخالهم الى الصفوف لانني كنت المناوب في ذلك اليوم . وعدت للتثاؤب ، للنشوة المصحوبة بالالم ، لكنني في الليلة السابقة

نمت مبكرا ، فما سر ذلك الارتخاء الذي سرى في كل اعضائي ؟ هذا السؤال كان يشتت اية فكرة أحاول تجميعها . حاولت تناسي الحالة ، بدأت الحصة التالية بنشاط وقوة ، كنت اشد على « الطبشور » عندما اكتب على السبورة ، شددت على كلماتي ، وتوجيهاتي للتلاميذ ، لكنني أخفقت في الاستمرار « الكف لا يلاطم المخرز » هكذا كان والدي يقول ، وهكذاقلت أنا، تثاءبت من جديد ، فتحت باعي ، وبقوة ضغطت ذراعي للخلف، فضحك التلاميذ ، فناديت أول تلميذ وقعت عليه عيني ، ورأيت في وجهه وضحكته من الصلف ما يكفي لاثارة ائمة المساجد ، لطمته على وجهه فبكى ، بينما تادب بقية التلاميذ . عبثا حاولت تجاهل الالم الذي استقر في مفاصلي . قررت الاستئذان من المدير والعودة الى البيت لاستريح . اشعر بان علاقتي بمعيظ هي تلخيص ثرى لبقائي في الصحراء ، ولانني اتمسك بضرورة البقاء هنا حتى الطرد ، فقد هرعت اليه ، وطلبت منه السماح لي بالخروج ، وعندما سالني عما بي ، اكتشفت ان ارتفاعحرارتي يشكل اثباتا دامغا على صدق نيتي ، وحقيقة مرضي . دنوت منه ، فوضع كفه على جبهتي كالطبيب ثم تلطف .

ـ سلامتك يا استاذ . وسمح لي .

حاول منصور مرافقتي ، لكن معيظا لم يسمح له ، ركبت دراجتي ثم اتجهت الى البيت. في الطريق ازداد أحساسيبالارتخاء مصحوبا بآلام ضاربة تشلخ مفاصلي كالسكاكين ، وارتفعت حرارتي لدرجة الغليان ، بينما ساهم صوت الدراجة الرتيب في اطالة الطريق ، وزيادة الالم . وصلت الوادي العريض الذي يتوسط

الطريق ، توقفت عند الجدول المائي في قاعة ، ونزلت عن الدراجة، فنزل معي الالم الذي سكن في جسدي كدمائي . اقتربت من الماء في محاولة لاستعادة نشاطي ، لكنني تراجعت كالمذعور عندما لامست الماء قدمي ، احسستها باردة كالثلج ، وتنازلت عن فكرة « النشاط » ، أحس الان ، بان ابلغ القصائد التي جادت بها قريحة العرب ، هي تلك القصيدة التي كتبها المتنبي في الحمى ، تلك التي يقول فيها :

وزائرتي كأن بها حياء فليس تزور الا في الظلام

كنت في الماضي اقرظ الشعر ، الى جانب محاولاتي الفاشلة لتركيب مسرحية ، ولكن نهايتي الشعرية كانت كنهاية الجاحظ مع فارق بسيط هو أن الجاحظ مات بين كتبه ، بينما انا مت بين هواجسي .

ففي ليلة التاسع من تشرين ، ذهب منصور لزيارة أصدقائه في احدى القرى المجاورة ، وبقيت وحيدا في البيت ، حاولت كتابة قصيدة ، كتبت بضع مقاطع ، ثم تعقدت « قريحتي » ، تذكرت نادية ، حاولت استمناء صورتها ، فلم أفلح ، خرجت الى الهواء الطلق ، كان القمر يتوسط السماء ، والقرية هادئة ، الا من نباح كلب عند احدى التلال ، كان الجو شاعريا وموحيا ، حاولت ، حاولت ، كنت احس بأن راسي مليء ، وصدري ، وحتى بطني ، كلي محشو باشياء كثيرة ، تمنيت لو استطيع تفريغها على الورق، لكنني فشلت ، دخلت البيت، فتحت حقيبتي بانفعال ، تناولت دفترا صغيرا يحتوي كل القصائد التي كتبتها أيام الدراسة ،

قراتها جميعا ، لا اذكر منها الان سوى أنها تتحدث عن الحب والوطن والارض ، تلك المفاهيم التي تعودت سماعهاوقراءتها .

... بعد ان فرغت منالقراءة ، أجريت عملية حسابية بسيطة خرجت منها بنتيجة ، انني في تلك الليلة قد بلغت الرابعة والعشرين . احيانا احس بشرود غريب كلما تذكرت السنوات التي عشتها ، كان السؤال ليلتئذ عن الوطن ، واحسست بارتطامي بجسم صلب ، ما الذي فعلته من اجل ذلك الوطن على امتداد تلك السنين الطويلة ؟

صنعت فنجان قهوة ، خرجت لاشاهد القمر ، بقيالسؤال خرجت مرة اخرى دون ان ادري لماذا ، احسست بالاختناق ، أمسكت بدفتر القصائد ، مزقته الى قطع صغيرة ، ثم احرقتها خارج البيت ، بعد أن وصلت الى قناعة ، ان القصيدة ليست اكثر من هاجس ، تفرزه حالات الغرق النفسي .

عندما غادرت الجدول المائي تملكني احساس بضرورة الخلاص ، وباننني مجرد كتلة لحمية تترامى على ظهر الدراجة . في الواقع لم اكن ادري اى خلاص هو الذي أردته ، لكناليوم بدا كئيبا ومؤلما ، وقطعة الجبن التي تناولتها في الصباح تحولت الى جمرة أحرقت معدتي ، وحاولت الخروج من فمي حاملة معها الماء العكر ، وقطع الخبز المبلولة والشاي المعطر ورواسب السجائر ، لكن معدتي لا تقدر علىالتقيؤ . منذ أن نشأت ومعدتي تقبل كل شيء على مضض ، زدت من عيار البنزين ، فاستجابت الدراجة ، وداهمت حلقي غصة ، استقرت

فيه كحبة برتقال ، حاولت ابتلاعها ، فكادت تخنقني ، كـــل الاشياء كانت تشير الى النهاية ، هكذا رايتهـــا انا ، وتنبهت الى ان اشجار النخيل التي تتطاول على سماء الصحراء ، تنتهي عند نقطة محددة من السماء ، وان الصخور البعيدة والجبال الجرداء ، تنتهي عند الافق الكالح ، فتبدو نهاياتها محدودبة ، كحشد رجال اجبروا على الانحناء ، ورأيت الطريق بلا نهاية ، تابعت السير ، صرت اتنفس بصعوبة ، جف حلقي ، تحولت رغبتي في وصـــول البيت الى أمينة ، وفجأة خطرت ببالي فكرة « الحمى » ، فهوى القلب من صدري وفهمت سر ذلك الالم .

عندما اقتربت من بيت علي ، القريب من بيتنا ، عـــادت الغصة الى حلقي ، تموجت الارض من تحتي كبســـاط أمعن في هزه ارتفاعا وهبوطا ، فاسرعت في احتضان نفسي ، تماســـكت بصعوبة ، ولما وصلت البيت ، اندفعت الى الداخل ككتلة لهـب ، ابتلعت اقراص « الروزوكين » * ، ثم تجرعت الماء ، والتحفـت كل البطانيات التي حواها البيت ، وبقيت أهدر حرارة وارتعاشا ، تمنيت الخلاص مرة اخرى ، وعبثا حاولت الصراخ ، صوتي لـــم يتجاوز حنجرتي ، جف فيها كلعابي ، ورضيت بالانين ، الحمى انداحت في جسدي الما وخدرا ، كنت أعرف بأن الصحراء هي نهاية العالم ، لكنها أصبحت قدري بعد أن قررت الموافقة ، لم يكن الرفض واردا لدي عندما قرروا تعييني في عمق الصحراء ، أنا دائمـــا أنسجم مع معدتي التي لا تستطيع التقيؤ ، كان مكتب الملحق الثقافي في عمان يعج بالشباب والفتيات والكهول والانتظار ، دائمـــا

---

* الروزوكين : نوع من الاقراص يستخدم لعلاج حالات الحمى .

انتظر ، ينفذ صبري بسرعة ، لكنني أظل انتظر ، وحتى عندما توفي والدي في حرب حزيران ، فقد انتظرت عودته من الموت لسنوات . جاء دوري ، كانت نادية معي وحاولت اقناعي بالعدول عن السفر حتى اللحظة الاخيرة ، دخلت في غرفة التعاقد ، بينما بقيت نادية عند الباب ، كانوا أربعة ، أحدهم سالني وكان لطيفا .

ـ لو أرسلناك الى منطقة نائية ، فهل توافق على العمل هناك ؟ .

فكرت قليلا ، كان علي ان اختار ، كدت أجيب بالنفي ،لولا هاجس أطبق على رأسي كشلال حار .

ـ اذا رفضت فسيرفضونني ويتبدد كل شيء ، كنت بحاجة الى السفر ، فالحياة دغل افريقي يغلق كل المنافذ من حولي ، أجبتهم :

ـ بلى اذهب . وحرصت على أن أقولها بالفصحى ،ليعرفوا بانني متمكن من لغتي العربية ، انفرجت أسارير الاربعة ، وهز أحدهم رأسه ثم كتب في سجلاته ـ المنطقة الجنوبية ـ القنفذة .

على الرغم من حرارة الصحراء فقد ازداد ارتعاشي ، اغتسلت بالعرق ، حضر منصور ، جلس على حافة السرير بجانب رأسي ، مسح العرق عن جبهتي ، وحاول تهدئتي ، ثم ذهب لاحضار الدكتور « الباكستاني » . الصحيح أن الباكستاني ليس طبيبا ، انما ممرض ، لكن أهل القرية والقرى

المجاورة يعتبرونه طبيبا ، لانه ذات مرة افلح في سحب كل السموم التي افرغتها الافعى في خصية « بوعايظ » ، وبوعايظ يشعر بانه مدين بحياته للدكتور « الباكستاني » الذي انقذه من سم الافعى التي لدغته في خصيته ، يوم ذهب لقضاء حاجته في الخلاء .

حضر علي ، صنع لي كمادات باردة ، وضعها على جبهتي ، ثم جلس الى جانبي ، صار يحدثني محاولا صرفي عن التفكير بالالم،أحسست برغبة في التبول ، نزلت عن السرير بمساعدة علي، ولما عدت ، ترنحت ، ثم القيت بنفسي على الفراش ، كعائد من رحلة موت ، تابعت هذياني، ووجدتني أحلق في سماء الجزيرة العربية ، رأيت الرمال من عل ، وهي تحاصر المدائن ، تزحف عليها ، دخل راسي شلال منالوجع الساخن ، أحسست بانعدام وزني ، كدت اتفسخ ، انتفضت ، ارتطم راسي بحافة السرير ، فتحت عيني ، فوجدت منصور وعلي والباكستاني ، يتحلقون حولي ، وأحسست بتحسن مفاجيء في حالتي ، فابتسم الثلاثة لي. من الصعب ان يفرق المرء بين الباكستاني وبين أهالي القرية ، فهو اسمر نحيل ، يلبس دشداشة بيضاء ، ويضع على راسه كوفية بدون عقال ، ولولا لهجته المستعربة ، لما أمكن تفريقه عن أهالي القرية ، والباكستاني قبل أن يغادر بيتنا ، قال لمنصور بان ابرة « الروزوكين » تكلفه خمسين ريالا ، أما عن اجرته ، فقد قال :

ـ « اللي يطلع من خاتركم يا استاذ » .

لما نقده منصور مائة ريال . انشرح صدره ، وبدت على وجهه معالم الارتياح . قال علي لمنصور بعد ان خرج الباكستاني

ـ لماذا اعطيته مائة ريال ؟ والله ان الحقنة لا تكلفه أكثـــر من ريالين ٠

فقال منصور :

ـ هذا الرجل ما جاء الى هنا الا من أجل المـال ، ثم انني أريد الاحتفاظ بعلاقة طيبة معه ، قد نحتاجه في يوم من الايام ٠

فاستنكر علي ـ انت أخرق ٠

لكن منصور رد بلهجة احسستها صادقة ٠

ـ المهم هو عماد ، صحة عماد فوق كل شيء ٠

★ ● ★

ـ ١١ ـ

أجمل ما في مدرسة بلحارث ، ذلك البئر العتيق ، المحفـــور على بعد خطوات منها ، مدخل البئر جميل لانه محاط بنباتـــات غريبة ، تعيش على المياه المتساقطة من وراء ظهور النســـــاء اللواتي ينتشلن منه الماء بأوعيتهن الجلدية ٠ المفتش الذي يقـوم بزيارته اليتيمة للمدرسة ، يقول بأن موقع البئر ، يجـــب أن يتغير ، لانه يشكل خطورة على حياة التلاميذ ٠ معيظ ينبري لـه

ـ بل ان هذا البئر فرج من الله ، لانه لا توجد في المدرســة مياه ، ولولا البئر لما وجد التلاميذ قطرة ماء يشربونهـا ٠ بوعايظ يسكب لي القهوة المرة ، بعد أن شرب منها المفتش ومعيظ وعلي ، بوعايظ يقرب رأسه من أذني ، يهمس :

ـ « هذا المفتش يبغى يقطع رزقنا » ٠

اسألــــه
ـ كيف ؟
يجيب بعد ان يتأكد من انشغال الاخرين بالحديث مــــــع المفتش ..

ـ « اذا راح البئر ، من فين نشوف النساء الجميلات ؟»
يناولني فنجان القهوة ، أقول :
ـ ننقل المدرسة بجانب البئر الجديد .

منصور لا يأبه لما يقوله المفتش ، يبدو أنه يفكر بظفــرة ، فالليلة موعده معها ، بوعايظ أكد له ذلك ، الليلة ستحتفل القرية بزواج حربان بن الشيخ ، ستحضر ظفرة ، واذا صدق بوعايـــظ، فسيقضي منصور معها أمتع اوقاته ، انه يسرح الان ، لا بـــد أنه يتخيل الموقف ، المقدمة والسياق وكل شيء ، الليلة سنعرف حقيقة بوعايظ ، الويل له أن كان كاذبا ،منصور ليس سهلا ، قبل قليل قال لي :
ـ الليلة ساخلط محرم في صفر ، سأفعل العجائب .

وانا اصدق منصور ، حتى في تطرفه وشطحاته .

علي يعدل جلسته استعدادا للحديث مع المفتش ، يضـــع رجلا على رجل ، فتتحرك زوبعة صغيرة من الغبار تحت قدمــه التي نبشت التراب الساكن ، في أرضية غرفة الادارة ، ينتبـــــه المفتش ، لكنه لا يعلق ، يبدو أنه لا يرى ،اذ كان احرى به أن يطلب تبليط أرضية المدرسة الترابية أو صقل جدرانها المثقبة والناتئة ،

فالمنطقة موبوءة بالافاعي والعقارب السامة . ذات مرة سقطت افعى غليظة منسقف احدى غرف الدراسة المصنوع من الشوك والخشب ، فالتفت على احد المقاعد وأمام الاستاذ منصور ، الذي كان يشرح حصة في اللغة العربية ، ولو لم يعاجلها بالعصا التي كان يحملها ، لحصلت مصيبة ، هذه عادة المفتشين ، لا يعرفون الأولويات .

علي مقنع أكثر من معيظ المدير ، ها هو يتصدى لاقتراح المفتش بثقة .

ـ أنا أرى بان نقل المدرسة من مكانها ، أسهل من تغيير موقع البئر ، لانه موجود قبل أن توجد المدرسة ، كما أن هذا البئر ، يرتبط بماضي القرية ، وأجيالها المتعاقبة ، وحتى بتراثها وأساطيرها ، محاولة الغائه أو نقله ، ستواجه بالرفض من أهالي القرية ، وربما معاداتهم حتى للمدرسة .

وجه معيظ يتهلل الان ، هو يعرف بان علياً مقنع الى حد الافحام ، اذا تحدث انصت له الجميع ، يخاله المستمع قارئا جيدا ، ومثقفا مرا ، لكنه ، كما قال لي ، لا يحب القراءة ، ولا يرى لها ضرورة منذ ان دخل هذه الصحراء ، حتى الصحف التي تصلنا بعد صدورها بأسبوع أو اسبوعين ، فهو لا يكلف نفسه عناء قراءتها ، اللهم الا تلك الصفحة المسلية منها ، والتي تحمل عنوان « صفحة المنوعات » . أصوات التلاميذ تتعالى في الصفوف ، شغبهم ، وعراكاتهم الصغيرة ، بعضهم يطلون برؤوسهم المغطاة بالكوفيات البيضاء ، ينظرون الى هذا الوجه الغريب ـ المفتش ـ .

منصور ينظر الىساعته ، يخرج من غرفة الاذارة وهـــــو يصفر * ايذانا ببدء الحصة الثالثة ، يتراجع المفتش عن اقتراحه أمام علي ، يقول :

ـ سننظر في تزويد المدرسة بصهاريج الماء ، سنطلب لكـــم موتور كهرباء ، أما عن تبليط المدرسة ، فسنصرف لكم ثمن الاسمنت والمواد الاخرى مع ميزانية العام المقبل ٠

ثم يفتح دفتره ، يسجل بضع ملاحظـــــات ، يناوله معيظ سيجارة ، علي ينظر الى برنامج الحصص المعلق على الجـــدار ، يتجه الى صفه بعد أن يصفر منصور مرة اخرى ٠

الحصة الثالثة من كل يوم خميس ، تقع في خانـــــة الفراغ والراحة ، علي يبدأ درسه لتلاميذ الثالث الابتدائي ، اسمعه مـــن غرفة الادارة ، لماذا لا يذهب معيظ لتدريس الصف الثاني ؟ انهـا حصته في احكام التجويد ، أنا المستريح لا هو ٠ يقول برجاء :

ـ اذا سمحت يا استاذ عماد تشغل الصف الثاني بدلا مني ، لانني مشغول مع حضرة المفتش ٠ اوافق ٠ اتجه الى الصـــف الثاني ٠
ـ قيام ، جلوس ٠ اخرجوا كراسات الرسم ، ارســـموا لي نخـــلة ٠

---

* تستعمل الصافرة بدلا من جرس المدرسة ٠

ها هو منصور ، مسجى على فرشة بالية ، في أرض تهامة ، كعود من الحطب الناشف ، جسده تحول الى قطعة واحدةجامدة، صلبة ، وجهه أصفر أصفر ، عيونه مسبلة ، وينتظر . رغم أنـــه مجرد جثة ، الا انه ينتظر بفارغ الصبر تلك اللحظة التي ستصـل بها الطائرة الهليكوبتر من مدينة « الباحة » ، لتحمل جثته الى المطار . ما أصعب انتظار الجثة . سأذهب معه ، جئنا معاوسنعود معا ، جثة أو جثتان ، لا فرق ، قبل ساعة انتهى تحقيق مديـــر التعليم واللجنة الطبية . خرجوا بنتيجة أنه مات بالحمىالشوكية، كل هذا الجمع من المدرسين . من أين أتوا ؟ كيف عرفوا ؟ ولـــم يمض سوى يوم على وفاة منصور ، كلهم تجمعوا أمام البيـــت . أسماء أعرفها واخرى لا أعرفها . وجوه مالوفة واخرى غريبـة ، كلهم تنادوا من أطراف تهامة . جاؤوا ليشاهدوا منصورا ، جمعوا لاهله النقود ، جميعهم وضعوا على أنوفهم مناديل الورق . هـــل تعفن جسد منصور ؟ رغم الواح الثلج التي أحضرها المدرسون مـن مدينة بلجرشي . والتي وضعوها فوق جسده وتحته . مـــا زال منصور ينتظر . الطائرة لم تصل بعد سأرافقه ولن أعـــــود . آه يا منصور ، لقد خلقت في القدرة على اتخاذ القـــرار . الليلة فقط سمعت كلمة الاستقالة ، وهي تنطلق من فمك بينما كنت تهذي . لأول مرة في حياتك . قلتها رغم تشنج حنجرتك . فخرجت منفمك على شكل صرخة كتلك الصرخة التي خرجت من فم علي عندمـــا أخبرنا بميلاد فجر . قلتها يامنصور . وكان العارضون قد توقفـوا عن الرقص ، وانخرست أصوات الطبول والزغاريد ، لأن العريـس يريد أن يبدأ حياة جديدة جديدة ، وبقيت أنت حيث أنت . عـلى السرير ملقى ، يغسلك العرق ، والملح الصحراوي يجف فوق خدك وساعديك وصدرك ، كنت تنادي . ظفرة . فتخرج الحروف مـــن

تذكرينني ؟ أتعرفين بانني الان فقط ، تنبهت الى ان السمـــــاء واحدة ، حيث انا ، وحيث أنت ؟ ، وهي امتداد لرحلتنا مـــــع الحياة ، ولارتحالي عنك ، هي الغربة يا نادية ، وأنت غريبـــة أيضا ، مسافرة حيث انت ، اتذكرك الان ، تصعقني المسافة الـتي تناثرت على رمالها كل أحلام الطفولة . أهكذا يكون الحب يـــا ناديـــــة ؟

ـ « استاذ رسمت النخلة » .

يناولني التلميذ دفتره ..

ـ لا بأس اكمل تلوين السماء .

ـ « بالازرق يا استاذ ؟ »

ـ كيف تراها أنت ؟

ـ « كالحة يا استاذ وصفراء ».

ـ اذن استعمل اللون الاصفر .

تخف حدة صوت علي عما كانت في بداية الحصة ، يحـاول الشد على الحروف والارقام ، الحصة شارفت على الانتهاء ،صوته متعبلعل زوجته أيضامتعبة مثله الان، فهي الاخرىتلقي حصصها في مدرسة البنات القريبة من بيته،اسمها عزيزة لا استطيع وصفها، لانني لم أشاهد وجهها سوى مرة واحدة ، يوم دعانا علي لتناول طعام الغداء في بيته ، يومها قدمت لنا أصناف الطعام التي لمنرها منذ أن غادرنا عمان . ويومها أيضا ، عرفنا سر بدانة عـــــلي ، وانتفاخ صدغيه .

المفتش ومعيظ ، يخرجان من صف منصور ، يقول الاول :

ـ الحصة ناجحة ، لكن يجب ان لا ينسى الاستاذ دفـــــتر تحضيره مرة اخرى .

★ ● ★

انطلقت الطبول ، قوية مدوية ، امتلأت ساحة سوق الثلاثاء الواسعة بجموع الراقصين والراقصات بأثوابهن المزينة الصاخبة الالوان ، لعلع الرصاص ، مصابيح الكيروسين اهتزت فوقالبراميل العالية ، والجالسون على المقاعد الطويلة المتلاصقة صفقوا ، قذفوا بركاتهم الجماعية والمنفردة في وجه العريس ، كل الناس حضروا ، وظفرة لم تحضر بعد ، منصور جلس بيني وبين علي ، أيمكن لبوعايظ أن يكذب على منصور ؟ لكنه أكد له الليلة ، بشهادتي ، ان ظفرة ستحضر لا محالة ، وستعرض ، لانها لا تستطيع رفض طلب الشيخ بوحربان . والشيخ بوحربان يعرفه كل الناس ، رجل ذو بأس وقوة ، وهو ابن المرحوم عبد الله الهزام الذي كان يجلد كل من يخطيء من أهالي القرى ، هكذا قالوا عنه ، لكن هل يستطيع بوعايظ اقناع ظفرة ، بقبول منصور ؟ .

تهيأ الرجال والنساء للرقص ، شبكوا أيديهم ببعضها ، أشعل العبيد النار في وسط الحلقة ، قربوا الطبول منها لتحميتها ، وظفرة لم تحضر بعد ، علي كان يحدق في شآبيب النار التيانعكس ضوءها على وجهه الذي بدأ لامعا كطبول الفخار المطلية ،منصور يرقب طريق السيارات بقلق وتوتر ، بدأ العبيد نقرهم على الطبول بخفة وقوة ، فدبت الحياة في طابور الرجال الذين صاروايلوحون بالعصي والسيوف اللامعة ، أما النساء فقد ادخلت كل واحدة منهن يدها تحت ابط الاخرى ، وبدأن يتمايلن برخاوة وانتظام ، فانخلعت عقول الرجال ، ثم انتظموا في حلقة واحدة ، وصاروا يخبطون الارض بأرجلهم ، فيثور الغبار ، يرفعونها ، يوصلونها

ثانية للارض دون ان يلمسوها ، وبخفة يرفعونها ثانية ، ثـــم يخبطون الارض خبطة واحدة ، فتنطلق الزغاريـــد ، يستثرى الغبار ، تتسع الحلقة ، يقفز رجل من بين الجمـــع ، يتمركز في الوسط ، تقابله امراة ، المفروض انها ظفرة ، هكذا ادعى بوعايظ، وبوعايظ لم ينزل الى الحلقة بعد ، لعله ينتظر ظفرة ، مثـــل منصور ، لكنه ينتظرها من أجل الرقص ، ماذا لو عرف الشيـــخ بوحربان بان منصور ينتظر ظفرة ليمارس معها الرذيلة في بيتنا ؟، ومنصور منذ الصباح يشكو من أعراض الحمى ، الا انه . قال .. سينتظر ظفرة مهما كلف الثمن .

صدور العارضات تهتز ، فيهتز بدني ، بوعايظ اقترب مـن منصور ، همس في اذنه ، فبدت عليه علائم الارتيـــاح ، بوعايظ حريص على ارضاء منصور ، فهو صديقه الوحيد ، ورفيق كأسه ، من بين كل أهالي القرية والمدرسين ، لم يجد بوعايظ صديقا لـه سوى منصور ، لعله عرض صداقته على الكثيرين لكنهم رفضـوا ، ربما العكس ، فهو مجرد « فراش مدرسة » وعارض في الاعراس ، لا يبالي بشيء ، ثم أنه فقير ، قال لي منصور بعد أن تركه بوعايظ وصار يدور بين الناس .

ـ احس بالخوف من لحظة اللقاء بظفرة ، وكيف سأفـــك « الحوقـــة » عن وسطها ؟ ترى ماذا تلبس تحت الحوقـــة ؟
قلت ـ هذا اذا كانت تلبس حوقة !

منصور لم يضحك للنكتة ، وأجزم ، بانه الان منصور الاخر، الذي لم أعرفه بعد .

قال ـ سامزق قطعة الشاش الاسود التي تغطي نهديها ، ساقبلها كالعشاق ، واستدعي في عضوي حرمان السنين العجفاء القاتلة .

العرضة عرس افريقي ، يزدهي بأثواب النساء المزركشة ، الوانهن السمراء والسوداء ، جسوم بعض الرجال العارية حتى الصرة ، أصوات الطبول،والعصي الجافة الممشوقة التي يحملونها، علي يتحدث مع معيظ الذي جلس الى جانبه .

ظفرة لم تصل ، بوعايظ مصر على عدم النزول الى الحلقة الا بوجود ظفرة ، لكن منصور قال بيأس

ـ ولست خائفا يا عماد من لقاء ظفرة ، لكنني اليوم أتطير ، أنا اعرف اليوم من أوله . كالرسالة من عنوانها .

ارتفعت أصوات الطبول ، قفز الرجال ، النساء ، الكل يرقص ، يقتربون من الشيخ ، كي يرى في حركاتهم وضحكاتهم تلك الفرحة التي يكابدونها بأجسامهم التي أجهدها القفزوالرقص، الشيخ يرقب الجميع يمسد لحيته البيضاء باصابعه ، وعلى وجهه مسحة مهيبة من الرضا ، لكزني منصور ، نظرت الى حيثأشار، سيارة جيب توقفت بجانب الحلقة ، تجمع حولها رجال ونساء ، جاء بوعايظ كمن وجد كنزا ، قال :

ـ « يا استاذ جاءت ظفرة ».

ثم اختفى بين الراقصين . تنبه معيظالمدير ، خطف نظرة الى بوعايظ ، قال لي منصور :

ـ أرأيت ، لقد صدق بوعايظ . كل شيء سيتم الليلة ، مهما حصل ، لن أنام الا بعد أن أفلح جسدها .

نزلت ظفرة من الجيب ، فتلألأ الخرز الافريقي على ثوبها الاصفر في ضوء المصابيح ، رفعت ثوبها الطويل قليلا باطراف اناملها ، ضحكت للرجال والنساء ، برزت أسنانها البيضاء ،نظر علي الى منصور ، ابتسم له ، ثم تابع حديثه مع معيظ المدير .

قلت لمنصور ..
ـ هل أنت خائف ؟

ـ كلا . لكن هل يختلف الامر مع ظفرة ؟ أرى كل عضو في جسدي يرتعش ، حتى شفتي ! اقترب الشيخ بوحربان من ظفرة التي توسطت الحلقة ، رفع يده ، قال :

ـ يا جماعة ..

سكت الجميع . توقفت الطبول . مد بوعايظ يده لظفرة ، فصافحته بحرارة ، ساد صمت ، اخترقه نباح الكلاب التي تقاتلت على قطع الدهن والعظم التي قذفها أصحاب العرس بعد أن شبع المدعوون ، تابع الشيخ :

ـ « يا جماعة ، ان شاء الله نشوف لاولادكم واحبابكم الافراح ، نبغى العرس يكون ولا كل الاعراس ، حيوا معي ظفرة اللي جاءت من القنفذة علشان عرس حربان » .

تعالت الزغاريد سحب الشيخ المسدس من حزامه ، ثم أطلق تسع طلقات متتالية ، فانطلقت الطبول ، بينما هز حربان رأسه باختيال ، انسحب الشيخ الى مكانه ، بدأ بوعايظ بالرقص ،فعلا الضجيج ، وتحلق الجميع حوله ، ثم اتسعت الحلقة ، احضروا الماء لظفِرة ، شربت ، ثم القهوة والتمر ، بوعايظ خطف نظرة واثقة الى منصور ثم مسح العرق عن جبهته ، الشيخ ناوله سيفا ، لوح به ، قفز ، قفز ، ثم دك الارض بقدمه ، فدك الجميع أقدامهم ، بينما جزع معيظ ٠ معيظ ٠ لم يكن في حالة فرح ، رغم انه صديق الشيخ بوحربان ٠ وكانت عيونه تجوب الراقصين والراقصات بحركات سريعة ٠

ـ انزل يا منصور ، ارقص معهم ٠

لكن منصور لم يجب ٠ كان انسانا اخر ، وظفرة توسطت الحلقة ، قابلت بوعايظ الراقص المر ، بدأت تهز خصرها ، ارادفها ، نهودها ، كل قطعة في جسدها اهتزت ، التهمتها عيون الرجال الشرسة ، كلهم كانوا يتابعون صدرها النافر ، يشتهونها أكثر منمنصور ، يعضون شفاههم السفلى ، بوعايظ ينظر الى منصور ، يهز رأسه اثناء الرقص ٠

ـ لا بد ان كل شيء على ما يرام ٠ قال لي منصور ٠٠

فوافقته على الفور ، بينما أحسست بانه هو على غير ما يرام ، قلت له :

ـ متعب أنت ؟

قال ـ كلا ٠

فوضعت يدي على جبهته ، وسحبتها بسرعة ، كان يغلي ، كأنه خارج من أتون ، قلت

ـ حرارتك مرتفعة جدا ، يجب أن تعود الى البيت .

سمعني علي ، قال :

ـ حرارة من التي ارتفعت ؟

ـ منصور . قلت

وضع يده على جبهة منصور ثم قال باصرار ..

ـ يجب ان تستريح في البيت ، انها الحمى . لـكن منصـور انتفض ثم افلت من يدي وهو يقول :

ـ دعوني وشاني . لا أريد العودة للبيت .

لكنه لم يكن قادرا على تثبيت نفسه على المقعد . قلت :

ـ ساحضر لك الباكستاني .

نزل علي عن المقعد ، أمسك بيد منصور ، بينما أمسكت أنا بيده الاخرى ، وانزلناه ع نالمقعد ، حاول المقاومة ، الا انه كان يترنح ، فاضطر للاستسلام ، . في البيت ، تمـــدد على السرير ، وضعنا فوقه كل البطانيات ، علي ركب دراجتـــــه ، وأحضر الباكستاني كالصاروخ ، الباكستاني زم شفتيه ، ابتسم لمنصـــــور وهو يحقنه « بالروزوكين » ثم وضع عدته في حقيبته الجلدية بعـد أن ناولته مائة ريال ، وعاد مسرعا لمشاهدة العرضة .

قلت ـ يجب ان تذهب يا علي الى زوجتك فالوقت متاخر .

ـ لكن منصور . قال علي بحرقة .

ومنصور غائب عنا الان ، يهذي ، يحدث نفسه ، أحيانـــــا يهم للنهوض ، ليقول شيئا ، لكنه لا يستطيع ، فيخلد لنفســـه ،

العرق يغسله من رأسه حتى أخمص قدميه ، . لن يستطيع انيفعل شيئا مع ظفرة ،حتى لو صدق بوعايظ وجاء بها الى البيـــت ، لن يستطيع منصور ، انه يهذي باستمرار ، حرارته ترتفع أكثر ، وجهه أصفر كالاموات ، صدره يرتفع ويهبط ، اصحيح ما قالـــه الباكستاني من أن منصور سيشفى خلال ساعات ؟

ـ هذا الباكستاني طبيب من القلة ، يلعن أبو الزمن . قال علي ثم بصق . لا بد ان منصور الان في عالم اخر ، فانـــا اعرف الحمى ، وويلاتها ، قد يدخل الان في مدينة ملأى بالجماجم ، وقد يحلق الان في منطاد فوق بحار مسحورة تخفي وراءها عيونـــا بومية واسعة تمنعه من الهبوط ، قد يبتكر لغة جديـــدة ، تغطي هلوساته وهذيانه ، ما زال يئن بصوت واهن ، يحرك رأســـه الى الشمال فتلتمع قطرات العرق المتناثرة على خده وصدغه ، يعيـد رأسه الى اليمين ، فتلتصق ذؤابات شعره الطرى برقبته واذنـه ، بفعل العرق الذي يغسل كل جسده ، وفجأة . منصـــور شهـق ، نفض رأسه بعنف ، ثم سكنت حركته . وبقيت عيناه مفتوحتـــين عن اخرهما .

وضعت اذني عند منطقة القلب من صدره ، لم اسمع شيئـا ، لطمه علي على وجهه ، لكنه لم يتحرك ، برد جسده دفعة واحدة. نظرت الى علي كان هو الاخر ينظر برعب الي . لم أقل شيئا . لم اجرؤ . ولم يجرؤ علي ، التقت عيوننا . تحسست أقدامي كيأتاكد من انني لست في حلم ، لمست يد علي . صدره . طبعا لم يمـــت منصور ، هناك سوء فهم ، أو سوء تقدير للحالة ، لكن اوتـــار الطمانينة بدأت تنسحب ببطء ولزوجة من جسدي الى الخارج ، ليحل محلها دبيب حاد يجلجل الفراغ الهائل الذي خلفه ذلـــك

الاحتمال ، من المسلم به ان منصور لم يمت ، لو قلتها لاصغـــــر تلاميذنا ، لما صدق ، فالمعقول هو المعقول .

ـ مات . مات يا عماد .

بصوت مجنون قالها علي . ثم ركض الى دراجتـــه ليحضر الباكستاني مرة اخرى . لعله يهذي ، أو ربما كنت أنا الذييهذي، أو يسمع بالمقلوب ، لحظات الموت ليست أكثر من حالة تتارجـح بين القبول وبين الرفض ، بين الحلم والحقيقة ، ومنصور ... لا يمكن أن يموت ، هل حقا مات ؟ منصور ؟ الم ينته هذا الحـــلم ؟ اذا كان هذا حلما ، فلماذا لا أصحـــــو ؟ ـ منصـــــور و و و ر ..... بصوتي المذبوح صحت . اعدتها ، لكن منصـــور بقي في مكانه ، لم أكن حالما ، سمعت طرقا بالباب . كانت الطبول قـــد توقفت ، وخفتت اصوات الناس في العرضة ، وذهب كل واحد الى بيته ليمارس طقوس ليلة الخميس ، فتحت الباب ، اصطدمتبوجه بوعايظ وظفرة . لقد صدق الرجل لكن .....

ـ الاستاذ منصور هنا ؟

قال بوعايظ باختيال ، بينما أمسكت ظفرة بذبالة مـــــن شعرها الفاحم ووضعتها عند زاوية فمها . لم اتبين وجهها تماما ، ولم أرى سوى عيونهاواسنانها الناصعة البياض ،وثوبهاالاصفر الذي خفت حدة لونه بفعل الظلام ، أما وجهها وبقية أعضائها ، فلم تكن واضحة .

قلت ـ بلى انه هنا . لكنه ....

فقال بحماس .

ـ قل له ظفرة جاءت حسب الوعد .

لن أقول شيئا يا بوعايظ ، لنأ قول ، ادخل انت وظفرةاليه، وستعرفا كل شيء ، سأجلس هنا ، خارج الباب . انتظر حضور الباكستاني وعلي . لكن ما الفائدة ؟ لقد ماتيا ظفرة ، ماتت في جسده تلك الرغبة الجارفة الزاحفة الى كل أعضائه وأحلامه وهواجسه ، لو تعلمي يا ظفرة ، ماذا يخبيء السكون في جثة هذا الغريب ، لكنه مات ، منصور مات ، وتلك الامنية الحارقة ، خبت في جسده . بوعايظ يضع رأسه على صدرمنصور ، ينتحب ، كالطفل يمط صوته المبلل بالدموع الحارة ، يتشبث بصدر منصور ،يـ حتضنه بكلتا يديه ، ثم يعاود النواح . ظفرة الحلم ،لما رأت منصور ميتا ، خرجت والفزع يتفرقع في عيونها ومن حولها ، ركضت ، بكت ، ثم اختفت في ظلام القرية ، لكنها لم تغب سوى ثوان قصيرة ، ثم عادت ، ومعها معيظ ، وخمسة رجال اخرين ، معيظ امسك بذراعها اليمنى وشعرها ، شدها رغما عنها ، كانت تبكي وترتعش ، لما وصلت الباب ، لطمها معيظ على وجهها ثم دفعها الى الداخل وهو يقول :

ـ « يا فاجرة ، كيف تعاشرين الخسيسين ، يا رجال ادخلوا واشهدوا ، بوعايظ النذل ومنصور المتعاقد زنوا مع ظفرة ، اشهدوا ».

حاولوا الدخول ، فوقفت في وجههم ، قال معيظ وهو يبعد يدى عن الباب ..

ـ « لا تكن مثل منصور وبوعايظ يا استاذ ، انت رجل عاقل ، خليك بعيد » . لكنني تشبثت بالباب ، كيف ابتعد يا منصور ؟ ابعد هذه الغربة ، هذا البعد ، ابتعد ؟

ومعيظ لا يعرف بعد ، انك ميت ، لقد احكم نصب شباكه لغريمه بوعايظ ، يريد الانتقام منه ،وانت الجسر يا منصور ، خمسة شهود زور ، احضرهم معه ، ليثبتوا جريمةالز نا ، ويجلدونك ، انت وبوعايظ ، لكنك ميت ، لن يستطيعوا ، هل كان في موتك الخلاص ؟

ـ يا كلب يا معيظ اذهب من هنا ، منصور مات ، يا كلب اذهب .

صحت بوجه معيظ الذي ترك يدي كمن أصابهمس كهربائي ، قال بوجل ..

ـ مات ؟! صحيح يااستاذ ؟ مات !

تابعت صراخي بتقزز .

ـ خذ رجالك واذهب . لقد مات .. مات ..

نظروا الى بعضهم ، تراجعوا قليلا ، ثم اختفوا .

البيت قفر الامن نواح بوعايظ ، وشهقاتك يا ظفرة ، لتذهبي الى الخلود ، لان منصور هو الذي أحبك .

الباكستاني عندما حضر ، تحسس جثة منصور ، قال بان الحمى التي أصابته هي من النوع الشوكي القاتل ثم ركب دراجته وذهب الى بيته دون أن يضيف شيئا ، فشتمه علي ، بينماانسحبت ظفرة خلسة ، بعد أن جرؤتعلىالنظر الىجثة منصور لمرةواحدة. علي اجهش بالبكاء فجاة بعد أن تمالك نفسه لفترة طويلة ، كان يبكي ويضرب رأسه الحليق بالعامود الخشبي الذي يتوسط الغرفة، فيهتز قنديل الكيروسين المثبت في مسمار على العامود .

* ★ *

ها هو منصور ، مسجى على فرشة بالية ، في أرض تهامة ، كعود من الحطب الناشف ، جسده تحول الى قطعة واحدةجامدة، صلبة ، وجهه أصفر أصفر ، عيونه مسبلة ، وينتظر . رغم أنـــه مجرد جثة ، الا انه ينتظر بفارغ الصبر تلك اللحظة التي ستصـل بها الطائرة الهليكوبتر من مدينة « الباحة » ، لتحمل جثته الى المطار . ما أصعب انتظار الجثة . سأذهب معه ، جئنا معاوسنعود معا ، جثة أو جثتان ، لا فرق ، قبل ساعة انتهى تحقيق مديـــر التعليم واللجنة الطبية . خرجوا بنتيجة أنه مات بالحمىالشوكية، كل هذا الجمع من المدرسين . من أين أتوا ؟ كيف عرفوا ؟ ولـــم يمض سوى يوم على وفاة منصور ، كلهم تجمعوا أمام البيـــت . أسماء أعرفها واخرى لا أعرفها . وجوه مالوفة واخرى غريبـة ، كلهم تنادوا من أطراف تهامة . جاؤوا ليشاهدوا منصورا ، جمعوا لاهله النقود ، جميعهم وضعوا على أنوفهم مناديل الورق . هـــل تعفن جسد منصور ؟ رغم الواح الثلج التي أحضرها المدرسون مـن مدينة بلجرشي . والتي وضعوها فوق جسده وتحته . مـــا زال منصور ينتظر . الطائرة لم تصل بعد سأرافقه ولن أعـــــود . آه يا منصور ، لقد خلقت في القدرة على اتخاذ القـــرار . الليلة فقط سمعت كلمة الاستقالة ، وهي تنطلق من فمك بينما كنت تهذي . لأول مرة في حياتك . قلتها رغم تشنج حنجرتك . فخرجت منفمك على شكل صرخة كتلك الصرخة التي خرجت من فم علي عندمـــا أخبرنا بميلاد فجر . قلتها يامنصور . وكان العارضون قد توقفـوا عن الرقص ، وانخرست أصوات الطبول والزغاريد ، لأن العريـس يريد أن يبدأ حياة جديدة جديدة ، وبقيت أنت حيث أنت . عـلى السرير ملقى ، يغسلك العرق ، والملح الصحراوي يجف فوق خدك وساعديك وصدرك ، كنت تنادي . ظفرة . فتخرج الحروف مـــن

فمك كسيرة واهنة ، لم تكن موجودا عندما جاءت ظفرة ، جسدك فقط هو الذي كان . كنت تحاول أن تقول أشياء كثيرة ، وكنت أعرف بأن عيونك تجوب الغرفة بحثا عنها ، لكنها لم تجد سوى جسدك المتيبس ، وزغرودة الحزن .

اخترقتك الحمى كالرمح ، يخترق جسد المحارب ، ربما كنت محاربا . وربما لم تكن كذلك ، هل كان علي محقا في قراره ؟ ماذا ساقول لنادية حينما أعود لها بجثتك ؟ هل سأستطيع مواجهتها ؟ وهي التي كتبت لي كثيرا عنك ، وحدثتني . أهالي القرية يحتشدون حول البيت يا منصور ، يريدون مشاهدة الهيليكوبتر . الناس يعزونني بوفاتك . ويعزون عليا . هل أصبحنا أهلك ؟ وأهلك لم يعرفوا بعد بالنبأ . وأنا الان أغرق بين راحتي ربما أختبيء خلفهما . لست أدري . تصارعني حمى من نوع اخر . لا يعرفها سوى الغريب . أدخل البيت . أعود اليك يا منصور . أحاول تقبيل جثتك . لكن الواح الثلج تخفيك تماما . ويمنعني المدرسون من ازاحتها عنك . أسمع الان هدير طائرة . وجوه المدرسين الشاحبة تتجه الى الاعلى ، تحدق في السماء . تجوب أجوازها ، السماء واسعة واسعة يا منصور . والطائرة تقترب . يصفق أطفال القرية لها ، رويدا رويدا تقترب . تتوسط سماء بلحارث . وفوق مساحة من الارض مسطحة تثبت الطائرة . ثم تنزل باستقامة وقسوة . يتجمع الناس حولها . تثير زوبعة من الغبار . ثم تستقر على الارض . من بعيد ، يصرخ بوعايظ ـ « أراه أو أقتل أحدكم » في عيونه اصرار غريب ، يمسكه رجال القرية ، فتنبعث في جسده الضئيل قوة رهيبة ، يفلت من بين أيديهم ، فيمسكون به مرة اخرى وينشج بألم . الان يا منصور تنتهي هذه الغربة ، يحمل المدرسون

جئتك الى الطائرة • سنركب الهليكوبتر لأول مرة في حياتنـــا يا منصور • أنا وأنت • بدون امتعة • سنبقي كل شيء هنا •حقائبنا ملابسنا حتى دفاتر المذكرات • سنحلق في سماء الجزيرة العربية • ثم نعود الى عمان • لا تبك يا علي ، احرص على نفسك وعـــلى زوجتك من الحمى ريثما ينتهي عامك الأخير هنا • سنلتقي بعـــد شهور في عمان ، بيننا حديث طويل ، أيها المدرسون المجتمعـــون حول الطائرة • لا تحدقوا بها هكذا ، ألم تروا في حياتكم طائرة ؟ وترتفع بنا الهليكوبتر ، ترتفع ، تبدو البيوت والسوق وبالحارث . وبيتنا ذو السقف المثقب • تبدو جميعها صغيرة ، والمدرســـون يصغرون أيضا • يصغرون تحت الطائرة • ثم يتحولون الى نقاط باهتة وسط بحر من الرمال •

* ★ *

أ

جمال ناجي : غرسة جديدة في روضة الرواية العربية في في الاردن ، ومع طراوتها فانها غرسة متطاولة ، يلفت الانتباه ، وللوهلة الاولى ، اخضرارها المعافي وقوامها المتسق .

العمود الفقري لهذه الرواية المتميزة هو السفر .. السفر في الارض والتجربة . وكل مسافر فيها تتقاطع طريقه مع طرق الآخرين ، ولا يسير اثنان في درب واحدة ، وكلما التقت الشخصيات عند ملتقى طرق تنتصب شخصية « ظفرة » ـ الافريقية السوداء ـ رمزاً للحياة بكل تجلياتها وتنوعاتها ، تفهمها كل شخصية وتتعامل معها حسب شروط الطريق التي تسافر فيها .

كل هذا يجري في بلدة بالحارث ، تتسلق الجبل كانها تسافر نحو قمته او تضعف لتستحم في مياه البحر الاحمر او تضيع فيه .. وبين المسافتين يلهث الناس فيها مسافرين في كل اتجاه .

وجميع المسافرين في هذه الرواية يدفعون الثمن أو يقبضونه حسب تعاملهم مع ظفرة أو قربهم منها أو بعدهم عنها ـ أما الذين تعبوا وتاكدوا أن الهدف لا يستحق كل هذا العناء فقد تراجعوا بكثير من الخسارات : منصور عاد جثة مملحة ، وعلي يفقد طفله الوليد والراوي يعود بالحمى والحسرة .

وتبقى ظفرة تجوب أسواق بالحارث تنتظر المسافرين الجدد الذين يبدو أن سيلهم لن يتوقف ... رغم ما تقوله الرواية من التجارب المرة . ولكن التجربة التي تعلمها الانسان هي أنه لا يتعلم الا من تجاربه هو .

تبقى هذه الرواية اضافة نوعية للرواية العربية في الاردن .

سالم النحاس

منشورات رابطة الكتاب الاردنيين

صمم الغلاف نبيل اليف

مطابع الدستور التجارية
تلفون : ٦٤١٥٣ / ٦٤١٥٤